

من هو
اليهودي؟!

الطبعة الأولى

م ١٩٩٧

الطبعة الثانية

م ٢٠٠١

جيتبع جستنوق المطبع معتمدة

© دار الشروق

أنتساب محمد المعسلم عام ١٩٧٨

القاهرة : ٨ شارع سيد بويه المصري -
رابعة العدوية - مدينة نصر
ص . ب : ٣٣ : البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني : email: dar@shorouk.com

د. عبد الوهاب المسايري

من هو
اليهودي؟!

دارالشروق

مقدمة

أوردت وكالات الأنباء الخبرين التاليين في شهر إبريل ١٩٩٧ :

١ - تتوقع السلطات الإسرائيلية أن تشهد مدينة القدس اضطرابات وعمليات لقاء حجارة . . . ولن يجيء إلقاء الحجارة من جانب الفلسطينيين هذه المرة وإنما من جانب اليهود المتدينين . والمكان المتوقع حدوث الاضطرابات فيه هو شارع بار ايلان، وهو أحد الشوارع الرئيسية في القدس الغربية ويمتد من وسط المدينة إلى شمالها ويمر بوسط حي « مياشعاريم » ويعيش فيه اليهود الارثوذكس الذين يحكمون على نسائهم وبناتهم بأن يلبس الملابس الخشنة الفوضافلة، وأن يغطين شعرهن بواسطة ايشارب وألا يختلطن بالفتيات السافرات ، كما يحرصون على الفصل بين الجنسين في الأماكن العامة وأيضاً في المدارس والجامعات .

٢ - أكدت الإذاعة الإسرائيلية أمس الأحد أن جندياً يهودياً أثيوبياً تابعاً للإحدى الوحدات الخاصة في الجيش الإسرائيلي طرد من عيادة من قبل ضابط أدلّى بعبارات عنصرية . وأوضحت الإذاعة أن « الجندي التابع لوحدة جولاني كان منذ شهر في الخدمة في قطاع جبل حرمون وقام ضابط بطرده من العيادة مؤكداً إمام طبيب عسكري وعدد من المرضيات أن « السود لا يحق لهم العلاج ». واضاف الضابط مخاطباً العاملين في العيادة « ينبغي تعليق لافتة عند المدخل توضح أن دخول السود ممنوع . هكذا كانت العادة المتبعة عندنا في المستوطنات » .

ونددت محكمة عسكرية بال موقف العنصري للضابط . وقال شاي بازاك، المتحدث باسم رئيس الوزراء الإسرائيلي ، للصحافيين أن نتانياهو « صُدم » بهذه القضية ويعتزم السعي « للتقرير بين مختلف المجموعات في الجيش الإسرائيلي عن طريق التعليم » . وقد طالب الأمين العام للمنظمة الموحدة لليهود الأثيوبيين،

شلومو مولا ، باقالة الضابط مؤكدا أمام الصحافيين أنه « حتى في جنوب إفريقيا لم تعد تُستخدم عبارات عنصرية من هذا النوع ». وكان اليهود الإثيوبيون قد عبروا عن قلقهم لإقدام ثلاثة من أفرادهم ، كانوا يخدمون في الجيش الإسرائيلي ، على الانتحار . وقال مولا إن « اليهود الإثيوبيين لا يشكلون سوى ٤٪ من عدد أفراد الجيش ولكنهم يشكلون ١٠٪ من الجنود الذين ينتحررون كل عام ». واضاف أن « معظم حالات الانتحار هذه ناجمة عن المعاملة السيئة والعنصرية ، خصوصاً على مستويات القيادة المباشرة ، التي يتعرض لها اليهود الإثيوبيون في أغلب الأحيان » أثناء خدمتهم العسكرية . واتهم النائب عن حزب العمل ، أديسو ماسالا ، وهو أول نائب من أصل إثيوبي ، الجيش « باتخاذ موقف تميizi من اليهود الإثيوبيين ».

والخبران هما جزء من نمط عام من الأخبار المماثلة ، التي ألفها قراءُ الصحف الإسرائيلية ومراقبو المشهد الإسرائيلي . وهذا يثيران قضية تبلغ الغاية في الخطورة والأهمية ، هي قضية الهوية ، الدينية والإثنية ، اليهودية (والتي يشار لها في الخطاب السياسي والإعلامي ، الإسرائيلي والغربي ، بعبارة « من هو اليهودي ؟ »).

ولعل أولى الخطوات التي تتخذها أية حركة بعث قومي أو حركة تحرر وطني هي تحديد من « نحن » ومن « هم » ، أي من يقع داخل نطاق الهوية ومن يقع خارجها ، وهذه الخطوة ليست أكاديمية أو حماسية أو مجرد ديباجة تبريرية وإنما هي من صميم الفعل السياسي ، إذ أنها خطوة ضرورية لصياغة المشروع ، بجميع جوانبه الحضارية والسياسية والاقتصادية ، وللتعریف من سیتم تجنیده ومن سیتم استبعاده ، ومن الصديق ومن العدو ، وما حدود الدولة ، وما هويتها ، ومن سكانها ، ومن يحق له الهجرة إليها ، وهكذا . وقد طرحت الصهيونية نفسها باعتبارها حركة تحرير الشعب اليهودي ، وأعلنت أنها ، في واقع الأمر ، هي القومية اليهودية ، وأن اليهود شعب واحد يندرج داخله كل أعضاء الجماعات اليهودية ، وأن ثمة تاريخاً يهودياً واحداً يدورون جميعهم في إطاره .

وانطلاقاً من هذا ، زعم الصهاينة أن هذا الشعب اليهودي شعب منفيّ ، تربطه علاقة عضوية أزلية بأرض الميعاد ، أي أرض فلسطين ، وأن أرض فلسطين نفسها ، خالية جراء تضرر وصول بعض أعضاء هذا الشعب . ثم طرح الصهانية الحل الصهيوني للمسألة اليهودية : نقل أعضاء الشعب اليهودي المنفيّ الذي لا أرض له ، إلى أرض جراء لا يعيش فيها أحد ، فيوطّنوا فيها وليؤسسوا عليها الدولة

اليهودية الصهيونية ، أي أنهم طرحو الشعار الصهيوني الإرهابي : « أرض بلا شعب ، لشعب بلا أرض ». ثم أُسست الدولة الصهيونية ، الاستيطانية الإحلالية ، بالفعل ، وتم تشريد العرب ، وبدأ مسلسل العنف الذي لم ينته بعد ، والذي لا يمكن أن ينتهي طالما بقيت بنية الظلم الصهيونية . وما بين بنية القمع الصهيونية ومقاومة العرب لها ، نشب الصراع العربي الصهيوني .

ولكن هناك صراعاً آخر نشب داخل الدولة الصهيونية نفسها بين الصهاينة أنفسهم بشأن الهوية القومية لسكان هذه الدولة اليهودية . فنشب صراع بين دعاء الصهيونية الدينية ودعاة الصهيونية العلمانية بشأن مصدر يهودية اليهودي : هل هو التطور التاريخي والتراث اليهودي والانتماء العرقي ، أم أنه الاختيار الإلهي والتاريخ اليهودي المقدس ؟ كما نشب صراع بين يهود الشرق والغرب ، وُطرح السؤال التالي : هل اليهودي هو اليهودي الإشكنازي الأبيض وحده ، أم أن مقوله اليهودي تشمل يهود العالم كافة بما في ذلك السفارد والفالشا ؟ وأرجىء حسم الخلاف ، واتفق الجميع على الإشارة مؤقتاً لكل أعضاء الجماعات اليهودية ، بكل تنوعهم الحضاري وانعدام تجانسهم العرقي ، على أنهم « اليهود » أو « الشعب اليهودي » بشكل عام مطلق مع التزام الصمت تجاه رقعة الخلاف . وقد ظلت حالة اللاحرب واللاسلم الهلامية هذه سائدة حتى إقامة الدولة حين صدر قانون العودة الصهيوني الذي يعطي لأي يهودي الحق في الاستيطان في فلسطين استناداً إلى « يهوديته » التي لم يتم تعريفها ! وبذاتم وضع قضية الهوية اليهودية (وقضايا أخرى مثل « الشخصية اليهودية » و« وحدة الشعب اليهودي ») على المحك .

وقد يقول قائل إن هذه الإشكالية من « مخلفات الماضي » ، وأنها من الأمور الشكلية غير العملية ولن تؤثر في سلوك المستوطن الصهيوني من قريب أو بعيد . ولكن مثل هذا القول سيكون من قبيل تطبيع النسق السياسي الصهيوني ، أي النظر إليه كما لو كان نسقاً سياسياً عادياً وليس كياناً إستيطانياً إحلالياً ، له ظروفه الخاصة . فتعريف اليهودي مسألة أساسية للعقد الاجتماعي الصهيوني . فإذا كان تعريف المسيحي ، على سبيل المثال ، في الولايات المتحدة مسألة شكلية ، فإن هذا يعود إلى أن حكومة الولايات المتحدة لا تبحث عن شرعية مسيحية ، ذلك أن مصادر شرعيتها تقع خارج نطاق الديانة المسيحية ، بل وربما خارج التراث المسيحي ككل . أما الدولة الصهيونية فهي تدّعي أنها يهودية وأنها تمجد قيمًا

(إثنية دينية أو علمانية) يهودية ، وأنها استمرار للدولة اليهودية القديمة (ولذا يطلق الصهاينة على إسرائيل اصطلاح « الهيكل الثالث ») . وانطلاقاً من هذا ، تطلب الصهيونية من اليهود الالتفاف حولها ودعمها ، وباسم هذه الهوية اليهودية المزعومة تقوم أيضاً بضم الأراضي . ولذا فالفشل في تعريف اليهودي يضعف مقدراتها التعبوية ، بل ويضرب أسطورة الشرعية الصهيونية في الصميم .

والصهاينة أنفسهم يدركون هذا تماماً الإدراك ، ومن هنا إصرارهم على ما يسمونه « تهويد » كل شيء في فلسطين : التاريخ ، والآثار ، واسماء القرى والمدن وأخيراً تغيير اسمها هي نفسها ، فتصبح فلسطين ، بعد غزوها واحتلالها والإستيطان فيها ، « إسرائيل » . بل وتنبع الشهوة وتزيد الشهية وتسمي أراضي الضفة الغربية « يهودا والسامرة » ، ويعاد تسمية هذه الأراضي التي احتلت وتلك التي يشتهون احتلالها (ضفتى نهر الأردن - من النيل إلى الفرات) « إرتس يسرائيل » . وكما قال بيجين لأعضاء كيبوتس عين هارود : « لو كانت هذه هي فلسطين وليس إسرائيل ، إذن فانتم غزاة ولستم مزارعين يفلحون الأرض . إذا كانت هذه هي فلسطين ، فهى إذن تنتسب للشعب الذي عاش هنا قبل أن تأتوا إليها . لن يكون لكم حق العيش هنا إلا إذا كانت هذه أرض إسرائيل » .

إن قضية تعريف اليهودي قضية دينية وسياسة ، بل وقضية مصيرية تصرف إلى رؤية العالم والذات وإلى الأساس الذي يستند إليه تضامن المجتمع وإلى مصادر شرعيته . ولعل أكبر دليل على هذا أن القضية قد أثيرة بشكل دائم في الكيان الصهيوني منذ تأسيسه ،وها هي تُطرح وبشكل حاده مرة أخرى هذه الأيام . ولا يوجد أى حل لهذه القضية ، كما نبين طى هذه الدراسة ، ففكرة أن اليهود يشكلون شعباً لا أرض له ، لا تقل في زيفها وكذبها عن أن فلسطين أرض لا شعب لها . وإذا كان الشعب العربي الفلسطيني يقاوم هذه الأكذوبة ، ويثبت من خلال أشكال النضال كافة أن فلسطين أرض عربية ، مأهولة بسكانها العرب ، فإن الواقع الإثنى والعرقى للمستوطنين الصهاينة في فلسطين المحتلة ، وللجماعات اليهودية خارجها ، يتحدى الأطروحات الصهيونية ويبين طبيعتها الاختزالية وزيفها وكذبها . والله أعلم .

عبد الوهاب المسيري

دمنهور - القاهرة

يونيه ١٩٩٧

من هو اليهودي؟

«من هو اليهودي؟» سؤال يُشار من آونة إلى أخرى داخل الكيان الصهيوني . ويُعبر هذا السؤال عن فشل الإسرائيليين في تعريف «الشخصية اليهودية » أو «الهوية اليهودية » .

ومصطلح «الشخصية اليهودية» في اللغة العربية مأخوذ من لفظ «شخص» ويعني مجموعة الصفات التي تميز هذا الشخص . أما في الأصل الأوروبي ، فإن المصطلح مأخوذ من اللفظ اللاتيني «بيرسونا Persona» ، وهو القناع الذي يرتديه الممثل ليُعبر عن السمة الأساسية للشخصية التي يؤدinya . و«الشخصية» هي صيغة منظمة نسبياً لمجموعة من الخصائص الجسمية والوجدانية والنزعية والإدراكية التي تميز الفرد عن غيره من الأعضاء . ويفترض أن الشخصية الفردية ، في جوانب عديدة منها ، هي نتيجة عملية تفاعلٍ مركبة بين الإنسان الفرد من جهة ، وبين مجتمعه وثقافته وتاريخه وبيئة الطبيعية والاجتماعية من جهة أخرى . ومن هنا ، يتحدث بعض العلماء عن الشخصية القومية ، وهي شخصية تنتُج من عملية تفاعلٍ متعددٍ من الزمن بين جماعة من الجماعات البشرية من جهة وتشكيل اجتماعي وتاريخي وبيئة طبيعية من جهة أخرى . ومن خلال الامتداد الزمني تكتسب هذه الجماعة سمات معينة وهوية محددة تصبح ثابتة أو شبه ثابتة يفترض أنها تميزها عن غيرها من الجماعات البشرية الأخرى . ومصطلح «الشخصية اليهودية» مُصطلح يفترض أن ثمة شخصية قومية يهودية ذات سمات مميزة وثابتة .

أما الكلمة «هوية» فهي اسم منقول من المصدر الصناعي «هوية» المأخوذ من الكلمة «هو» ، وتعني : مجموعة الصفات الجوهرية والثابتة في الأشياء والأحياء . فكأن مُصطلح «هوية يهودية» يعني أن ثمة جوهراً يهودياً ثابتاً يسم أعضاء

الجماعات اليهودية أينما كانوا وينحهم شخصيتهم اليهودية المحددة ، ويفرقهم عما سواهم من البشر . وغنى عن القول إن هذا المصطلح ، مثل مصطلح «الشخصية اليهودية» ، يُعبر عن نموذج اختزالٍ لا يتافق كثيراً مع الحقيقة التاريخية المتعينة ولذلك فمقدراته التفسيرية ضعيفة للغاية . ويشكل استخدام مصطلحات مثل «شخصية يهودية» و«هوية يهودية» تبنياً غير واع للنماذج التفسيرية الاختزالية ، الصهيونية والمعادية لليهود ، التي تفترض وجود طبيعة يهودية ثابتة وعصرية يهودية وجريمة يهودية ووجود سمات أساسية للشخصية اليهودية . فهي من منظور المعادين لليهود شخصية متآمرة عدوانية استغلالية ومنحلة ، وهي كذلك شخصية تجارية بطبعها ، أما الصهاينة ، فينسبون إلى هذه الشخصية اليهودية المستقلة سمات إيجابية ، فاليهودي يتسم بالإبداع والمقدرة على الانسلاخ من مجتمع الأغيار ، وهو يدافع عن نفسه ضد العنف لكنه لا يرتكب العنف أبداً ضد الآخرين ، وهكذا . ومن السمات الأخرى التي تُنسب إلى الشخصية اليهودية حبها للنكتة ، ومقدرتها النقدية أو حسها النقدي . و يؤسس الصهاينة نظريتهم في القومية اليهودية والشعب اليهودي انطلاقاً من تأكيد وجود هذه الشخصية اليهودية . كما أن الصهيونية العمالية تصف الشعب اليهودي بأنه شعب طفيلي من السماسرة .

وإذا اختبرنا النموذج الكامن وراء مقولات مثل «الشخصية أو الهوية اليهودية الثابتة الواحدة» فإننا سنكتشف مدى قصوره ، فأعضاء الجماعات اليهودية ليسوا تجاراً بطبعهم ، إذ عمل العبرانيون بالزراعة في فلسطين ، كما كان منهم الجنود المرتزقة في الإمبراطوريتين اليونانية والرومانية ، ومعظمهم الآن من المهنيين في الغرب . وهم ليسوا متآمرين بطبعهم ، بل وسقط منهم ضحايا للتمر ، لكن هذا لا يمنع وجود متآمرين وتجار بينهم . وهم ليسوا منحليين في كل زمان ومكان ، إذ كانت هناك أزمنة وأمكنة استمسك فيها أعضاء الجماعات اليهودية بآداب الفضيلة ولم تُعرف بينهم ظواهر مثل ظاهرة الأطفال غير الشرعيين .

وهناك خلل يتمثل في الحديث عن اليهود بشكل مجرد، فمن يود أن ينسب العنصرية إلى الهوية أو الشخصية اليهودية سيجد قرائن على ذلك في مكان وزمان معينين، ومن يود أن ينسب إليهم التآمرية سيجد أيضاً قرائن على ذلك في مكان وزمان آخرين، ثم ينم تعميم الجزء على الكل. وهذا ما يقوم به الصهاينة، عن

وعي أو عن غير وعي، حينما يتحدثون عن الشخصية اليهودية أو عن الهوية اليهودية.

ولكن الشخصية (أو الهوية) ، كما أسلفنا ، هي نتاج تفاعل بين مجموعة من البشر ومُركب من الظروف التاريخية والبيئية الثابتة على مدى زمني معقول ، وهو الأمر الذي لم يتتوفر إلا للعبرانيين ، ولم يتتوفر للجماعات اليهودية التي انتشرت في بقاع الأرض المختلفة وعاشت تحت ظروف اجتماعية مختلفة . ولذا ، نرى أنه يجب الابتعاد عن التعميم المتعسف والكف عن استخدام صيغة «الشخصية اليهودية» لتحدث بدلاً من ذلك عن «الشخصيات اليهودية» و«الهويات اليهودية» .

وصيغة الجمع لا تنكر الخصوصيات اليهودية ، ولكنها لا تجمع بينها وكأن هناك صفة جوهرية أو عالمية كامنة في كل اليهود . ومن هنا ، يمكننا أن نتحدث عن الشخصية (أو الهوية) اليمنية اليهودية في أواخر القرن التاسع عشر ، أو الشخصية الخزرية اليهودية في القرن التاسع ، أو الشخصية الأشkenازية في إسرائيل ، أو الشخصية السفاردية من أصل سوري في أمريكا اللاتينية . ويمكن دراسة تطور هذه الشخصيات اليهودية المتنوعة وال مختلفة بدراسة سماتها المستمدّة من أزمنة وأمكنة مختلفة . وفي هذه الحالة ، سنكتشف أن حب النكبة ليس خاصية لصيغة بالشخصية اليهودية . فالفقه اليهودي (حتى القرن التاسع عشر) يحرّم النكبات ، كما أن هجاء الحاخامات أمر لم يكن مسموحاً به . ونجد أن حب النكبة هذا ظاهرة مقصورة على يهود أوروبا في القرن التاسع عشر ومرتبط بضعف مؤسساتهم الدينية والاجتماعية . ولم يكن الحس النقدي ولا المستوى العلمي الرفيع معروفاً بين أعضاء الجماعات اليهودية في أوروبا حتى القرن الثامن عشر ، إذ حرّمت قيادتها الدينية قراءة كتب الفلسفة اليهود ودواوين الشعر العربي الدنوي ، كما حرّمت دراسة اللغات الأجنبية ودراسة الرياضيات والجغرافيا والتاريخ ولم تستثن من ذلك تواريخ الجماعات اليهودية . وكان الجهل بالجغرافيا عميقاً إلى درجة أن الحاخamas كانوا عاجزين عن تحديد اتجاه القدس . ولكن ، مع دمج اليهود في الحضارة الغربية وترايد معدلات العلمنة بينهم ، وانفكاك قبضة المؤسسة الحاخامية التقليدية ، تملّك أعضاء الجماعات اليهودية في الغرب في العصر الحديث ناصية العلوم الحديثة ، فظهر العلماء وظهر الحس النقدي ، وظهر الإحساس بالنكتة .

وما تَجدرُ ملاحظته أن كثيراً من الأدباء الصهيونية والغربية ، حينما تتحدث عن الشخصية اليهودية أو الهوية اليهودية ، تشير عادةً إلى تجربة تاريخية محددة هي تجربة يهود اليديشية ، أي الجماعة اليهودية في شرق أوروبا والتي كانت تشكل جماعات وظيفية يتحدث أعضاؤها اليديشية ، ويعيشون في الظروف الاقتصادية والاجتماعية نفسها ، وفي المحيط الحضاري السلافي (المسيحي) نفسه ، وهو ما أفرز شخصية يهودية شرق أوربية يمكن أن تُسمى «الشخصية اليديشية» تتحدد ملامحها لا من خلال تشكيل تاريخي يهودي عالمي وإنما من خلال التشكيل الحضاري الشرق أوربي . وقد أكد آرثر روبين في كتابه اليهود في الوقت الحاضر أن كلمة «يهودي» تعني بالنسبة إليه «أشكنازي» ولا تضم اليهود السفارد أو الشرقيين . ورغم أن يهود اليديشية كانوا يشكلون الغالبية الساحقة من الجماعات اليهودية في العالم في نهاية القرن التاسع عشر (حوالي ٨٠٪) ، إلا أن هذا لا يجعل منهم شخصية يهودية عالمية ، إذ أن هذه الشخصية اليديشية (القومية) هي ثمرة تفاعل الجماعة اليهودية مع المجتمع الشرقي أوربي في بولندا وروسيا داخل تركيبة اجتماعية وثقافية مُحدّدة . وينبع مشروع حزب البوند السياسي من الإيمان بوجود شخصية يهودية قومية شرق أوربية ، لا شخصية يهودية عالمية ، ولذا كان الحل المطروح هو تطوير هذه الشخصية اليديشية دون الانزلاق إلى أبعاد تعميمية تجريدية . وقد تبنت روسيا السوفيتية هذا الحل في نهاية الأمر بعد أن رفضه لينين في بدايته ، كما تتجلى ملامحه في تجربة بروبيجان .

وقد اختفت الشخصية اليديشية مع التحولات الاجتماعية الضخمة التي حدثت في مجتمعات شرق أوربا ، ولم يكتب لها الاستمرار . ويبدو أن المكون الأساسي لهذه الشخصية مرتبط تمام الارتباط بالوظيفة الاجتماعية للجماعات اليهودية كجماعات وظيفية تبني شخصيتها المستقلة ليضمن المجتمع عزلتها ومن ثم مقدرتها على أداء وظيفتها . وقد تحول يهود اليديشية من جماعات شبه قومية متماسكة إلى جماعات مختلفة: يهود روسيا ويتحدوثون الروسية ، ويهود بولندا ويتحدوثون البولندية، ويهود أوكرانيا ويتحدوثون الأوكرانية، أما يهود اليديشية الذين استقروا في ألمانيا وفرنسا وإنجلترا والولايات المتحدة فقد اندمجوا في مجتمعاتهم وتحدثوا لغاتها .

ومن المفارقات المهمة أن الصهاينة الذين يجدون الشخصية اليهودية يقومون

في الوقت نفسه بالهجوم عليها ورفضها ، فهم يرون أن هذه الشخصية مريضة وهامشية . وعند هذه النقطة أيضاً ، يلتقي الصهاینة مع المعادين لليهود ، بل إن الصهاینة استمدوا نقدهم للشخصية اليهودية من أدبيات معاداة اليهود . ويطرح الصهاینة فكرة الشخصية اليهودية الحقيقة بوصفها شخصية يهودية خالصة عَيَّرت عن نفسها من خلال الكيان اليهودي القومي سواء في الكومونولث الأول أو الثاني ، وهي تُعبِّر عن نفسها من خلال الكومونولث الثالث ، أي الدولة الصهيونية . لكن دارس هذه الدولة يعرف أن علم الاجتماع الإسرائيلي قد تَقْبِل ، كحقيقة شبه نهائية ، انقسام أعضاء التَّجَمُّع الصهيوني إلى جماعات يهودية لكل شخصيتها المستقلة التي تكونت عبر مئات السنين في المنفى ، أي في أنحاء العالم .

ورغم استخدامنا لمصطلح «شخصية» في هذه المقدمة ، إلا أنها ستناقش الإشكالية مستخدمين كلمة «هوية» بسب شيوعها في الأدبيات التي تناقش الموضوع ، إذ أن كلمة «شخصية» عادةً ما تعني «شخصية قومية» ، بينما تُستخدم كلمة «هوية» دائمًا في عبارات مثل «هوية إثنية» . ولا شك في أن الصهاینة يفضلون كلمة «هوية» لإمكان استخدامها في الإشارة إلى يهود إسرائيل وإلى أعضاء الجماعات اليهودية في العالم ، فهي كلمة لن تسبب حرجاً ليهود الولايات المتحدة التي تقبل الهويات الإثنية طالما أنها لا تتعارض مع الانتماء القومي . أما كلمة «شخصية» ، فهي باستدعائهما فكرة الشخصية القومية ، ستسبب الكثير من الحرج والفرقة .

الهويات اليهودية بوصفها ترثيّةً چيولوجياً تراكميّاً

موضوع الهوية / الهويات اليهودية في غاية التركيب لأسباب عديدة يمكن أن نورد بعضها فيما يلي :

- ١ - تم تعريف الهويات اليهودية على أساس ديني ، وعلى أساس قومي ديني ، وعلى أساس قومي وحسب . وقد دارت معارك بين أعضاء الجماعات اليهودية (خصوصاً منذ نهاية القرن التاسع عشر) حول رؤيتهم لهويتهم وتعريفهم لهذه الهوية .
- ٢ - لا تتفق رؤية الإنسان لهويته ، بصورة حتمية و مباشرة ، مع ممارساته العملية وواقعه وأفعاله . فالرؤية قد تكون تعبيراً عن مثل أعلى أو عن مجموعة من الرغبات ، أما الواقع فإنه يتطور بطريقة لا تتفق بالضرورة مع رغبات الإنسان . ومن ناحية أخرى ، فإن رؤى أعضاء الجماعات اليهودية للهوية اليهودية لم تكن تتفق بالضرورة مع تطور واقعهم التاريخي ، بل وكانت تتناقض أحياناً الواحدة مع الأخرى .
- ٣ - ولكن هذا لا يعني أن رؤية الإنسان لهويته لا تتدخل البتة في تحديد سلوكه ، إذ تظل الرؤية ، برغم عدم اتفاقها مع الواقع ، عنصراً مهماً ومؤثراً في هذا السلوك ، دون أن تكون بالضرورة العنصر المحدد الوحيد له .
- ٤ - تحددت الهويات اليهودية المختلفة في غياب سلطة يهودية مركبة ، دينية أو دنيوية ، عبر الاحتكاك مع عشرات التشكيلات الحضارية ومن خلالها ، الأمر الذي نجم عنه تنوع هائل في الهويات اليهودية . وتتسم هذه الهويات باستقلال نسبي عن سياقها الحضاري ، شأنها شأن هويات الجماعات الإثنية والدينية ، ولكنها في الوقت نفسه لا تنتهي إلى هوية يهودية واحدة عالمية . ومع هذا ، فقد استمر الجميع (اليهود وغير اليهود) في الحديث عن اليهود كما لو كانوا كلاً واحداً .

لكل هذا ، ظهر ما نسميه «التركيب الجيولوجي التراكمي» للهويات اليهودية . وفي حديثنا عن النسق الديني اليهودي ، نشير إلى أنه ليس كلاً واحداً يتسم بقدر من الاتساق ، وإنما هو عبارة عن تركيب جيولوجي تراكمي مُكون من طبقات تراكمت الواحدة فوق الأخرى ، ولم تُلغ كل طبقة جديدة ما قبلها . وقد تكون هذه الطبقات متشابهة أو متناقضة ، ولكنها مع هذا تعيش متجاورةً ومتزامنة وغير متفاعلة ، وسميت كل هذه الطبقات «النسق الديني اليهودي» .

ويمكننا أن نقول إن الهويات اليهودية أيضاً تركيب جيولوجي تراكمي ولكنه لم يكن ملحوظاً بسبب انفصال أعضاء الجماعات اليهودية وجودهم في أماكن متفرقة من العالم . فيهود اليديشية نتاج مجتمعاتهم ، وكذا يهود اليمن ويهود فرنسا ، وهكذا . ومع ذلك ، كان يُشار إليهم جميعاً باسم «الشعب اليهودي» ، مع افتراض وجود وحدة ما دون أن يختبر أحد مدى صدق هذه المقوله . ولكنها حين وُضعت موضع الاختبار ، بعد تأسيس الدولة الصهيونية ، ظهرت الخاصية الجيولوجية التراكمية ، وتفجرت قضية من هو اليهودي تعبيراً عن اكتشاف أن ما يُسمى «الهوية اليهودية» ليست كلاً يتسم بقدر من التجانس وإنما هي في الواقع الأمر تركيب جيولوجي تراكمي . وقد أظهرت مجتمعات كل من أمريكا اللاتينية وجبال القوقاز هذه الخاصية الجيولوجية التراكمية في الهويات اليهودية بشكل واضح .

ومن ثم ، فلابد من نموذج تفسيري أقل عمومية ، يمكنه أن يصف المتغيرات التاريخية والثقافية والدينية التي دخلت على هذه الهوية وحولتها إلى هويات مختلفة . ولذلك ، فإننا سوف نتحدث بصيغة الجمع فنشير إلى «الهويات اليهودية» (كما نتحدث عن «أعضاء الجماعات اليهودية») فهو مُصطلح يعبر عن نموذج أكثر تركيبية ومن ثم أكثر تفسيرية لواقع أعضاء الجماعات اليهودية ، يؤكّد استقلالهم النسبي عن محیطهم دون أن ينسبهم إلى تاريخ يهودي عالمي أو جوهر ثابت ، بل ينسبهم إلى مجتمعاتهم وحسب . ومن هنا محاولتنا فهم هذه الهويات لا من خلال العودة إلى ما يُسمى «التاريخ اليهودي» ، أو العودة إلى كُتب اليهود المقدّسة أو شبه المقدّسة ، أو إلى بروتوكولات حكماء صهيون ، وإنما بالعودة إلى التشكيلات الحضارية والتاريخية المختلفة التي ينتمي إليها أعضاء الجماعات اليهودية والتي تفاعلوا معها وأثروا فيها وتأثروا بها ، وإن كانت درجة

تأثيرهم تفوق كثيراً درجة تأثيرهم كما هو الحال عادةً مع أعضاء الأقليات . فهناك هوية بابلية يهودية ، وأخرى فارسية يهودية ، وثالثة أمريكية يهودية ، ورابعة عربية يهودية .

ولكن نموذجنا التفسيري لا يُهمّل البُعد اليهودي في بناء هذه الهويات ، فالدين اليهودي (بخاصيته الجيولوجية التراكمية) عنصر أساسي فيها ، كما أن الرؤية الدينية بُعد حيوي ومهم . وكل ما نفعله أننا لا نجرده وإنما نراه في تفاعله مع الأبعاد الحضارية الأخرى . كما أننا لا نرى أن له مركزية تفسيرية . ولذا ، فنحن لا نتحدث عن «هوية يهودية» عامة مطلقة ، ولا نتحدث عن غياب أية هوية يهودية ، وإنما نتحدث عن هويات يهودية مُتعينة متنوعة .

والفكر الصهيوني يَصُدُّ عن نموذج اختزالِي يُنكر واقع الجماعات اليهودية الحضاري الفسيفسائي الجيولوجي التراكمي ، ويطرح فكرة الهوية اليهودية العالمية الواحدة ، وتم عملية تسمية الواقع وتصنيفه من هذا المنظور . ومن ثم ، فإن هناك مصطلحات مثل «يهود الدياسبورا» و«يهود المنفى» و«الشعب اليهودي» ، وهي جمِيعاً مصطلحات تفترض وحدة اليهود وتتجانسُهم . ولكن حين يصل أصحاب هذه الهويات إلى إسرائيل ، يتضح للجميع أنهم ليسوا مجرد يهود ، إذ يصبحون مرة أخرى مصريين ومغاربة وروس ! وتتحدد مكانتهم الاجتماعية بحسب ذلك . ولذا ، ينكر كثير من المغاربة هويتهم العربية ، ويصرُّون على أنهم فرنسيون وليسوا يهوداً وحسب ! وكذلك فإن يهود العالم العربي ، الذين تم تهجيرهم باعتبارهم يهوداً بشكل عام ، يصبحون مرة أخرى يهوداً شرقيين يقطعون في آخر درجات السلم الاجتماعي الإسرائيلي ، كما يصبح يهود روسيا أوشكنازاً أو غربيين ، ويعطُّون المنح والقروض وأفخر المنازل ، ثم يشغلون قمة السلم الاجتماعي . ومن هنا تظهر الهويات اليهودية المختلفة ، وهو ما يؤدي إلى طرح قضية «الهوية اليهودية» على بساط البحث .

تاریخ الهویات اليهودیة حتی الوقت الحاضر

تاریخ الهویات اليهودیة طویل ومرکب ویغطي عدة أزمنة وأمكنة لا يربطها رابط في كثير من الأحيان . وأولى الهویات اليهودیة هو ما نسمیه «الهویة العبرانية» أي هویة العبرانيین قبل أن يتم تهجیرهم إلى آشور وبابل . وكانت الهویة العبرانية تستند إلى تعريف دیني قومی ، كما كان الحال في الشرق الأدنی القديم . ونحن نستخدم مُصطلح «قومی» لعدم وجود مُصطلح أدق ، ونظن أن مُصطلح «أقوامی» (نسبة إلى کلمة «أقوام») قد يكون أكثر دقة (مع قبّحه) لأنه مُستمد من الواقع التاریخي القديم إذ تشير الدراسات التاریخية إلى «الأقوام الکنعانیة» التي سكنت فلسطین (التي كان يُقال لها آنذاك کنعان) وإلى «الأقوام الآرامیة» ، وهي مجموعات بشرية متماسكة على نحو فضفاض ، تتصف ببعض السمات القومیة ، مثل اللغة المشتركة والثقافة المشتركة والدین المشترك ، ولكنها ليست شعوبًا ولا قومیات بالمعنى الحديث للكلمة . ولم يكن التعريف الدیني القومي للهویة العبرانية منغلقاً تماماً ، فشمة إشارات عديدة في الكتابات العبرية التي تعود إلى هذه الفترة أو تتحدث عنها إلى الأجنبی أو الغریب (جیر) الذي بوسعه أن ينتمی إلى الجماعة العبرانية عن طريق التھود . وجاء في سفر التثنیة «لا تظلم أجيراً مسکيناً وفقیراً من إخوتک أو من الغرباء الذين في أرضك في أبوابك ، في يومه تعطیه أجرته ولا تغرب عليها الشمس لأنه فقیر وإليها حامل نفسه لثلا يصرخ عليك إلى الرب ف تكون عليك خطیة» (ثنیة ٢٤ / ١٤ - ١٥) . وعند الحديث عن هجرة العبرانيین من مصر ، أو ربما طردھم ، ترد إشارة إلى أن بعض العبرانيین قد تخلّفوا فيها ، كما خرج معهم «اللھیف» (خروج ١٢ / ٣٨) ، وهي إشارة إلى جماعات ليست متجانسة عرقياً ولا تنتمي إلى العبرانيین ، ولكنهم على أية حال أصبحوا جزءاً لا يتجزأ من الجماعة العبرانية . وبعد التغلغل العبراني في أرض کنعان ، امترزج العبرانيون بالکنعانیين وتزاوجوا معهم . ولكن الحظر التوراتی على

الزواج من الأجانب ، وعلى ذرية مثل هذا الزواج ، لا ينطبق على الأدوميين أو المصريين ، وإنما ينطبق على العمونيين والمؤابيين وحسب . « لا يدخل عموني ولا مؤابي في جماعة الرب حتى الجيل العاشر ، لا يدخل منهم أحد في جماعة الرب إلى الأبد ... لا تكره أدومياً لأنه أخوك ، لا تكره مصر ياً لأنك كنت نزيلاً في أرضه . الأولاد الذين يولدون لهم في الجيل الثالث يدخلون منهم في جماعة الرب » (ثنية ٢٣ ، ٣ / ٨ - ٧) . فالحظر هنا ليس مطلقاً ولا ضيقاً . ومع هذا ، فإن ثمة إشارات إلى أن الغريب ليس مقبولاً قبولاً كاملاً بآية حال (ثنية ١٤ / ٢١) . وبذا ، يمكننا أن نقول إن رؤية العبرانيين لهويتهم وتعريفهم لها كان مرجناً منفتحاً إلى حد ما .

أما على مستوى الممارسة ، فقد كانت الهوية العبرانية منفتحة تماماً . فعند التهجير إلى بابل ، كان العبرانيون يشكلون جماعة شبه قبالية تتحدث العربية ، كما كان لهم نسقهم الديني المقصور عليهم . ومع هذا ، كانت هذه الجماعة مندمجة إلى حد كبير في المحيط الثقافي والسياسي الذي تواجدت فيه ، متاثرة به أكثر من تأثيرها فيه . فالعبرانيون الذين تسللوا إلى كنعان كانوا قد أحضروا معهم من مصر (وأرض مدين) فكرة الإله الواحد . ولكن اليهودية (كنسق ديني متتساك) لم تكن ، مع هذا ، قد اكتمل تكوينها بعد واستواعت عناصر كثيرة من عبادات الخصب الكنعانية ، كما أن « يهوه » ذاته لم يكن قد اصطبغ بعد بصبغة كنعانية . وتبين العبرانيون كثيراً من أعياد الكنعانيين وعباداتهم ، واكتسبوا الثقافة الكنعانية ، وتحذثوا بإحدى اللهجات أو اللغات الكنعانية والتي أصبحت تُدعى « العبرية » . وحينما تم تأسيس المملكة المتحدة في عهد داود وسليمان ، لم يتوقف دخول العناصر الأجنبية . ولقد كانت سيرة داود هي سيرة تحالفه مع الفلستين ، ثم تنكّره لهم ، ثم تحالفه مع دوبلات أخرى مجاورة ، وهكذا . وحينما فتح داود القدس التي كانت لا تزال في يد اليبوسيين (وهم بطن من بطون كنعان) ، تم استيعابهم في الجماعة العبرانية حسبما يُقال .

وبعد موت سليمان ، انحلت المملكة المتحدة إلى دولتين عبرانيتين : المملكة الشمالية ، والمملكة الجنوبية . وكان لكل مركز ديني مستقل عن الأخرى . ومسألة المركز الديني في العبادات القرىانية القديمة ، التي تدور حول المعبد ، مسألة شديدة الأهمية ، فالمعبد هو مصدر الشرعية السياسية ومصدر الدخل

الأساسي للدولة، وهو في نهاية الأمر مصدر الهوية القومية وأسسها . وقد كان ملوك الدوليتين العبرانيتين يتزوجون ، كنوع من التحالفات السياسية، من أميرات أجنبيات كن يحضرن آلهتهن معهن ويقمن المعابد لهم وينشرن العبادات الخاصة بهم بين الأثرياء وفي البلاط ، الأمر الذي كان يزيد التعددية الدينية وعدم التجانس القومي . والزواج من أجنبيات هو عادة ترجع إلى سليمان الذي لم تكن أمه عبرانية . وثمة رأي يذهب إلى أن العبرانيين كانوا يتحدون في تلك المرحلة بلهجات مختلفة ، ولم تكن هناك بالتالي هوية لغوية موحدة . وكانت الدوليتان اليهوديتان في حالة حرب وصراع دائمين، كما كانتا تستعينان بالدول والدوليات الأجنبية في صراعهما (الواحدة ضد الأخرى) . فقد قامت آشور بالهجوم على الدولة الشمالية ، وفعلت ذلك بناء على طلب من دولة يهودا الجنوبية التي طالبت بحمايتها من الضغوط التي كان يمارسها عليها الحلف المعادي لآشور ، والذي تشكل بين الدوليات الآرامية والمملكة الشمالية .

وفي هذا الإطار ، يكون الحديث عن هوية عبرانية متسمًا بالتجاوز ، ولكنه مع هذا يصلاح إطاراً أو تعريفاً إجرائياً ضرورياً لتقسيم تطور ما يُسمى «الهوية اليهودية» عبر المراحل التاريخية .

ونستخدم أحياناً مصطلح «الهوية العبرانية اليهودية» للإشارة إلى الهوية اليهودية بعد العودة من بابل بتصریح من قورش الأخميمي إمبراطور فارس . وقد بدأت ملامح الدين اليهودي في التحدد في تلك المرحلة ، وظهر نسق ديني يهودي أخذ شكل عبادة قربانية مرتبطة بالهيكل الذي أعيد بناؤه بأمر من قورش ، وبأرض فلسطين ، وبالتراث العبري . ومن هنا تسميتنا الهوية اليهودية في هذه المرحلة بأنها «هوية عبرانية يهودية» ، فهي عبرانية في جانبها الإثنى المحدد ويهودية في جانبها الديني الآخذ في التحدد . وقد ظهر مصطلح «يهودي» بعد التهجير إلى بابل . ومع هذا ، يمكن القول بأن هذا المصطلح فيه شيء من التجاوز أيضاً ، إذ أن معظم العبرانيين كانوا قد فقدوا لغتهم إبان الإقامة في بابل ، وبدأت أغلبيتهم تتحدث الآرامية . ولذا ، فإن كلمة «عبرانية» تشير هنا إلى الانتماء الإثنى العام وليس اللغوي . كما أن النسق الديني اليهودي لم يكن قد تَحدَّد تماماً إذ كانت تدخل عليه مؤثرات بابلية وفارسية قوية ، ثم هيلينية فيما بعد . وكما هو واضح، تُعدُّ هذه المرحلة مرحلة انتقالية من منظور الهوية . ولذلك ، فإننا نستخدم مصطلح «هوية يهودية» على سبيل التبسيط .

ولم يكن تعريف الهوية العبرانية اليهودية في فلسطين يتسم بكثير من المرونة ، إذ أن أعضاء الجماعة العبرانية العائدية من بابل كانوا يشعرون بأنهم أقلية تهددهم الأقوام التي سكنت فلسطين ، خصوصاً وأن العبرانيين الذين لم يهاجروا تزاوجوا مع نساء تلك الأقوام ورجالهم . ولذلك ، طالب عزرا كل من يود أن ينتمي إلى الجماعة اليهودية العبرانية بأن يطلق زوجته الأجنبية . « إنكم قد خنتم واتخذتم نساء غريبة لتزيدوا على إثم إسرائيل ، فاعترفوا الآن للرب إله آبائكم ، واعملوا مرضاته ، وانفصلوا عن شعوب الأرض وعن النساء الغريبة » (عزرا ١٠ / ١٠ - ١١) . وعند هذه النقطة ، ظهرت جماعة السامريين التي شكلت جماعة دينية مستقلة ذات هوية دينية قومية مستقلة ، ورفض أعضاؤها الخضوع لأوامر عزرا (لكن التفسير السامي للانفصال عن الجماعة اليهودية يخالف ذلك تماماً ، إذ يرى السامريون أنهم أتباع موسى الحقيقيون الذين لم يفسدوا أسفار موسى الخمسة بتعاليم الحاخامات وتفسيراتهم ، أي التلمود) . وقد ظل تعريف عزرا (الديني الإثني) الصارم للهوية سائداً حتى العصر الهيليني .

لكن أهم التطورات ، في هذه المرحلة ، كان انتشار الجماعات اليهودية خارج فلسطين . فهذه الجماعات كانت تشكل في معظم الأحيان جماعة وظيفية وهى جماعات بشرية يستوردها المجتمع من خارجه أو يجندها من داخله ويوكّل لها وظيفة محددة ويعرفها في إطار وظيفتها ، وليس في إطار انسانيتها المركبة والمتعددة . وحتى يتسعى لأعضاء هذه الجماعة الاضطلاع بالوظيفة الموكّلة إليهم بكفاءة وعلى أحسن وجه ، كان لابد لها أن تحتفظ بعزلتها الإثنية والدينية عن مجتمع الأغلبية . وتُعبّر هذه العزلة عن نفسها في صورة التمسك الشديد بالهوية والاحتفاظ بقدر من الاستقلال عن المحيط الحضاري الذي يعيش فيه أعضاء الجماعات اليهودية ، في الرؤية والأكل والملابس واللغة والعقيدة (مجتمعة أو منفردة) . ولكن يجب أن نشير إلى أن هوية الجماعة الوظيفية تكون عادةً حالة عقلية أكثر من كونها أمراً واقعاً ، فأعضاء الجماعة الوظيفية يستبطئون الدور المفروض عليهم ويتوحدون به ، ويجدون أن العزلة أمر طبيعي بل ومرغوب فيه ، وأن تتحقق الذات والهوية لا يمكن أن يتم بدونه . ويلاحظ أن أعضاء الجماعة الوظيفية لا يعيدون صياغة هويتهم من خلال عناصر مستمدّة من التراث اليهودي أو العقيدة اليهودية وحسب ، وإنما من عناصر مستمدّة (وربما بالدرجة الأولى) من المجتمع الضيف الذي يعيشون في كنفه أو من مجتمع مضيف سابق ، أو من

خلالهما مجتمعين . ولكن الحالة العقلية الانعزالية تخبيء أحياناً معدلات عالية من الاندماج في المجتمع ، فهم يحتفظون بقدر من الاستقلال عن محياطهم الحضاري ، ولكنهم يكتسبون سماتهم ورؤيتهم لأنفسهم ولغيرهم من محياطهم الحضاري (شأنهم في هذا شأن أعضاء الجنس البشري كافة) وذلك رغم استقلالهم عن هذا المحيط . فهو ينتمون إليه أو رغمـاً عنه ، وإنما من خلاله ومن داخله وبسبب تفاعلهم معه . وفي الحقيقة ، فإن تفرد الهوية اليهودية في أي مجتمع لا تعود إلى تفرد العناصر التي تكون الهوية وإنما تعود إلى وجودها مجتمعة . كما أن حركيات المجتمع الذي يعيشون فيه يمكن أن تفسـر هذا الاختلاف . وهذه التركيبة المزدوجة (قدر من العزلة الفعلية والعقلية مع قدر من الاندماج الفعلي) هي التركيبة المثلثى للجماعة الوظيفية . فثمة ضرورة لقدر من الاندماج لأنهم يتعاملون يومياً مع أعضاء المجتمع ويتحركون داخله وبحسب قواعده ، ولكن ثمة ضرورة أيضاً لقدر من العزلة لضمان الحياد واستمرار العلاقة التعاقدية بين أعضاء الجماعة الوظيفية وأعضاء المجتمع المضيـف ، أي أن التركيبة المزدوجة تضمن أن يظل أعضاء الجماعة الوظيفية في المجتمع دون أن يكونوا منه .

وأولى الجماعات الوظيفية اليهودية التي ظهرت خارج فلسطين هي الحامية العبرانية في جزيرة إلفنتاين ، التي وطنـها فراعنة مصر هناك (في أسوان) كجماعة وظيفية استيطانية قتالية لحماية حدود مصر الجنوبية . وقد فقد هؤلاء علاقتهم بفلسطين ونسوا شعائر دينهم أو ربما احتفظوا ببعض العناصر الوثنية من العبادة اليهودية واختلطوا بالمحـيط المصري . فعندما أراد الفرس استخدامهم كجماعة وظيفية قتالية تابعة لهم ضد المجتمع المصري ، أرسل الإمبراطور الفارسي رسالة يشرح لهم فيها طقوس عيد الفصح ليؤكد هويتهم اليهودية ويضمن عزلتهم عن محياطهم المصري ، ومن ثم ولاءـهم . ومع هذا ، يرى بعض المؤرخين أن هوية هؤلاء اليهودية أو حتى العبرانية أمر مشكوكـ فيه ، فقد كانوا يتحدثـون الآرامية ، كما كانت عبادتهم مشوبة بعناصر وثنية عديدة . ويمكن القول أيضاً بأن الجماعة العبرانية في مصر ، قبل خروجها منها ، كانت جماعة وظيفية ، فقد عمل يوسف مديرـاً لخازن فرعون ، كما كان يضطلع بالأعمال المالية .

أما أهم هذه الجماعات طرـاً فهي الجماعة اليهودية في بابل والتي رفضـت العودة

إلى فلسطين (فيما عدا قلة صغيرة) . وقد بدأ أعضاء هذه الجماعة في الاشتغال بالتجارة والربا والانصراف عن الزراعة والتركيز في المدن ، أي أنهم تحولوا بالتدريج إلى جماعة وظيفية وسيطة تجارية ومالية ونسوا العبرية . وقد كان لهذا التجمع اليهودي علماؤه ومدارسه الدينية وتوجهه الثقافي الذي أخذ يزداد قوة واستقلالاً ، حتى أصبح في مرحلة من المراحل مركز اليهودية الأساسية في العالم . ويتبين تفتقده الهوية اليهودية في ظهور المفهوم الديني القائل بأن شريعة الدولة هي الشريعة التي يجب أن يتبعها اليهودي في حياته العامة ، أي أن نطاق الشريعة اليهودية تم تقليله بحيث أصبح مقصوراً على حياة اليهود الدينية الخاصة وتعاملاتهم فيما بينهم ، ولا يضم حياة اليهود العامة أو القومية . وأصبحت اليهودية (على مستوى الممارسة) ديناً ، وتحول الجانب القومي فيها إلى مجرد رموز وتطبعات دينية وانتماء إثنى يضمن للجماعة الوظيفية الوسيطة اليهودية العزلة الالزمة لها . وهذا هو المبدأ الذي لا يزال سائداً بين أعضاء الجماعات اليهودية رغم كل الأدعاءات .

وما زاد من استقلال يهود بابل عن بقية الجماعات اليهودية في فلسطين أو خارجها ، أن اليهود ، حتى عام ٣٣٣ ق.م ، كانوا يعيشون داخل إطار إمبراطورية واحدة يدورون في فلكها ويستمدون هويتهم منها ، وهي الإمبراطورية الفارسية . أما بعد ذلك ، فقد كان الجيب البابلي يدور في فلك فارسي (أخميني ثم فرثي ثم ساساني) ، بينما كان يهود فلسطين والبحر الأبيض المتوسط يدورون في فلك هيليني ثم روماني . وقد واكب ظهور الجماعات اليهودية خارج فلسطين تفتقده الهوية العبرانية اليهودية في فلسطين . فقد شهد العصر الهيليني ، خصوصاً في القرن الأول قبل الميلاد والقرن الأول الميلادي ، تخلخلًا في الهوية العبرانية اليهودية في فلسطين (في الرؤية والممارسة) من المنظورين الديني والقومي لأسباب عديدة :

١ - أدى تسامح الحضارة الهيلينية ، وجاذبيتها الشديدة ، واستعدادها للاعتراف بأي يهودي على أنه هيليني ، متى أجاد اللغة اليونانية ومارس أسلوب الحياة اليونانية ، إلى انجداب العبرانيين اليهود (في بلدان البحر الأبيض المتوسط ومن بينها فلسطين) بأعداد متزايدة إلى تلك الحضارة ، وإلى تبنيهم طرق تفكيرها وزيها واحتفالاتها ، وفي نهاية الأمر لغتها . وسمح للعبرانيين اليهود الذين طرحوا هويتهم جانباً (مثل تايبريوس الإسكندر ، ابن أخي فيلون الفيلسوف السكndري ،

وَكَثِيرُونَ غَيْرِهِ) بَأْنَ يَصْبِحُوا مُوَاطِنِينَ يُونَانِيِّينَ تَامًاً . أَمَا بَقِيَّةُ أَعْضَاءِ الْجَمَاعَةِ الْيَهُودِيَّةِ الَّذِينَ احْتَفَظُوا بِعَقِيدَتِهِمْ ، فَلَمْ يَكُنْسُبُوا الْمُوَاطِنَةِ الْيُونَانِيَّةِ لِعدَمِ اسْتِطَاعَتِهِمُ الْمُشارَكَةُ الْكَاملَةُ فِي نِشَاطَاتِ الْمَدِينَةِ (الْبُولِيسِ polis) ، إِذْ كَانَتِ الْحَيَاةُ فِي الْمَدِينَةِ تَدُورُ حَوْلَ الْعِبَادَةِ الْيُونَانِيَّةِ الْوَثَنِيَّةِ . وَكَانَتِ الْقِيَادَةُ الْيَهُودِيَّةُ فِي فَلَسْطِينِ ذَاتِهَا مُصْطَبَغَةً بِالصِّبْغَةِ الْإِغْرِيقِيَّةِ ، الْأَمْرُ الَّذِي أَدَى إِلَى نَشُوبِ الثُّورَةِ الْحَشْمُونَيَّةِ ضَدَ السُّلُوقِيِّينَ . وَلَكِنَّ الْقِيَادَةَ الْحَشْمُونَيَّةَ مَا لَبَثَتْ ، هِيَ ذَاتِهَا ، أَنَّ تَأْغَرَقَتْ بَعْدَ اسْتِيلَائِهَا عَلَى الْحُكْمِ وَاصْطَنَعَتْ أَسْمَاءً إِغْرِيقِيَّةً مُثْلِ أَنْتِيَجُونَ وَالْإِسْكَنْدَرَ .

٢ - لَمْ تَكُنِ الْهُوَيَّةُ الْعَبْرَانِيَّةُ الْيَهُودِيَّةُ ، دَاخِلَ فَلَسْطِينِ ذَاتِهَا ، مُحدَّدةً بِشَكْلٍ صَارِمٍ ، حَيْثُ كَانَتْ تَعِيشُ فِي فَلَسْطِينِ أَعْدَادًا كَبِيرَةً مِنْ أَقْلِيَاتِ غَيْرِ يَهُودِيَّةِ (يُونَانِيِّونَ وَفِينِيَّقِيُّونَ وَبَقِيَا الْفَلَسْطِينِيِّينَ وَبَقِيَا الْأَقْوَامِ السَّامِيَّةِ) . وَيُتَضَّحُ عَدَمُ التَّحْدِيدِ فِي فَرْضِ الْمُلُوكِ الْحَشْمُونَيِّينَ الْيَهُودِيَّةِ بِالْقُوَّةِ إِذْ فُرِضَتِ الْقُوَّةُ عَلَى الْأَدُومِيِّينَ (فِي شَرْقِ الْأَرْدُنِ) وَعَلَى الْإِيَّطُورِيِّينَ (فِي الْجَلْلِيلِ) . وَكَانَ هِيرُودُ (مَلِكُ الْيَهُودِ) مِنْ أَصْلِ أَدُومِيِّ ، وَكَانَ هُؤُلَاءِ الْمُتَهَوِّدُونَ يَشَكَّلُونَ هُوَيَّةً جَدِيدَةً أَيْضًاً .

٣ - كَانَتِ الْيَهُودِيَّةُ ، كَنِسَقُ دِينِيٍّ ، تَخُوضُ تَحْوُلَاتٍ عَمِيقَةٍ فِي تِلْكَ الْمَرْحَلَةِ ، نَتْيَاجَةً احْتِكَاكِهَا بِالْفَكْرِ الْهَيْلِينِيِّ وَانْتِشَارِ الْيَهُودِ فِي حَوْضِ الْبَحْرِ الْأَبِيضِ الْمُتَوَسِّطِ . وَظَهَرَتْ فَرَقٌ يَهُودِيَّةٌ كَثِيرَةٌ مِنْ بَيْنِهَا الصَّدُوقِيُّونَ (مِنْ طَائِفَةِ الْكَهْنَةِ) الَّذِينَ كَانُوا لَا يُؤْمِنُونَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَالْأَسِينِيُّونَ (مِنْ أَبْنَاءِ الشَّعْبِ) الَّذِينَ كَانُوا يَحْيَوْنَ حَيَاةً تَقْشُّفَ وَرَهْبَنَةً . بِالإِضَافَةِ إِلَى الْفَرِيسِيِّينَ (مِنْ أَبْنَاءِ الطَّبَقَةِ الْوَسْطَى أَسَاسًاً) الَّذِينَ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَإِلَيْهِمْ يَرْجِعُ الْفَضْلُ فِي إِعَادَةِ صِيَاغَةِ الْيَهُودِيَّةِ ، وَهُوَ مَا جَعَلَهُمْ أَهْمَّ هَذِهِ الْفَرَقِ . كَمَا كَانَ هُنَاكَ أَبْنَاءُ الطَّبَقَاتِ الشَّرِيكَةِ الْمُتَأْغَرِقَوْنَ ، فَضَلَّاً عَنِ الْفَرَقِ الشَّعْبِيَّةِ الْمُتَطَرِّفَةِ مُثْلِ الْغَيْوَرِيِّينَ (قَنَائِيمِ) ، وَعَصَبَةِ الْخَنَاجِرِ (سِيكَارِيِّ) ، وَكُتَّابِ «كَتَبِ الرَّؤْيِ» (أَبُوكَالِيَّبِسِ) ، وَكُتَّابِ «الْكَتَبِ الْخَفِيفَةِ» (أَبُوكَرِيفَاِ) . وَكَانَ لِكُلِّ فَرِيقٍ رَؤْيَتَهُ وَعَقِيَّدَتَهُ . وَمِنْ ثُمَّ ، كَانَتِ كَلِمَةً «يَهُودِيِّ» فِي تِلْكَ الْمَرْحَلَةِ الْتَّارِيْخِيَّةِ ، تَضُمُّ تَعْرِيفَاتٍ كَثِيرَةً مُتَضَارِّيَّةً الْأَمْرُ الَّذِي زَادَ مِنْ خَلْخَلَةِ الْهُوَيَّةِ عَلَى مَسْتَوِيِ الرَّؤْيَةِ وَالْمَارَسَةِ .

٤ - وَفِي هَذَا الإِطَّارِ ، طَرَحَ الْفَرِيسِيُّونَ رَؤْيَةً جَدِيدَةً لِلْهُوَيَّةِ تُحرِّرُهَا مِنْ الْمَفْهُومِ الْقَدِيمِ الْمُرْتَبِطِ بِالْجَمَعَةِ الْقَبْلِيِّ الْعَبْرَانِيِّ أَوِ الْجَمَعَةِ الزَّرَاعِيِّ الْمَلْكِيِّ ، أَوِ الْجَمَعَةِ

الكهنوتي المرتبط بالهيكل والعبادة القرابانية . فأعيد تعريف الهوية بحيث أصبحت أساساً هوية دينية روحية ذات بُعد إثنى مُتقلّص ، ليس بالضرورة قومياً متضخماً ، وهي علاوة على هذا غير مرتبطة بالهيكل . وواكب هذا التعريف الجديد استعداد للتصالح مع الدولة الحاكمة أو القوة العظمى في المنطقة ، وعدم الاكتتراث بنوعيتها مادامت لا تتدخل في حياة اليهود الدينية . وقام الفريسيون بنشاط تبشيري خارج فلسطين ، الأمر الذي يفسر زيادة عدد اليهود في الإمبراطورية الرومانية في تلك المرحلة .

٥ - كما شهدت تلك المرحلة الصدام بين الإمبراطورية الرومانية والقيادات الشعبية العبرانية اليهودية في فلسطين ، التي أجهدها دفع الضرائب للإمبراطورية ، فاندلعت الثورة في صفوها . وعارض الصدوقيون والفريسيون التمرد ضد الرومان ، ولم يكترث أعضاء الجماعة اليهودية في بابل به . ووقفت بعض المدن ذات الأغلبية اليهودية الواضحة ، مثل صفد وطبرية ، موقف التأييد من الرومان . وانضم اليهود المتأخرقون إلى الرومان وحاربوا في صفوفهم ، فكان هناك جيش يهودي تحت قيادة أجريبا الثاني أثناء حصار القدس وكانت أخته بيرنيكي هي عشيقة القائد الروماني تيتوس . وكانت جهود الرومان موجهة لإخماد التمرد وحسب ، وليس للقضاء على اليهودية كدين أو على اليهود كإثنوس أو قوم (كما تزعم التواريخ الصهيونية أو المتأثرة بها) .

٦ - وفي هذه المرحلة ، ازداد انتشار الجماعات اليهودية في العالم نتيجة الهجرة من فلسطين والتهدّد ، بحيث أصبح عدد اليهود المقيمين خارج فلسطين يفوق عدد المقيمين فيها . وكما بینا ، كانت أعداد متزايدة من يهود فلسطين تفقد صبغتها العبرانية لتكلّس صبغة هيلينية . أما خارجها ، فقد نسي يهود حوض البحر الأبيض المتوسط ، ولا سيما في مصر ، العبرية تماماً ، وتمت ترجمة العهد القديم إلى اليونانية (الترجمة السبعينية) بتشجيع من البطالة حتى يفهم يهود مصر معانيه . وبتشجيع منهم أيضاً ، تم تشييد هيكل في مصر (في ليونتوبوليس) وهو هيكل أونياس ، وذلك حتى يستقلوا عن هيكل القدس ، ويبعدوا عن نفوذ السلوقيين ، وحتى يمكن الاستفادة منهم كجماعة وظيفية ، مقاتلة وسيطة ، وهو ما كان يعني ظهور هوية يهودية في مصر الهيلينية مستقلةً عن الهوية اليهودية في فلسطين .

وهكذا كانت الهوية اليهودية ، داخل فلسطين وخارجها ، تخوض عملية تفتّت على المستويين الديني والقومي . ولذلك ، يمكن القول بأن تحطيم الهيكل على يد تيتوس لم يكن سبباً مباشراً في القضاء على الهوية العبرانية اليهودية ، وإنما كان تجسيداً لعملية تاريخية مركبة أدت إلى القضاء على هذه الهوية وإلى تفتيتها ، ولم يكن تحطيم الهيكل سوى تعبير نهائي عن هذه العملية . فائثناء الحرب الرومانية ، استسلم قائد قوات الجليل يوسيفوس فلافيوس للرومان ثم انضم إليهم ، كما فرّ يوحنا بن زكاي من القدس أثناء حصارها ، وكلاهما كان من الفريسيين الذين انضموا إلى صفوف المتمردين على مضض . وقد سمح الرومان ليوحنا بن زكاي بتأسيس مدرسة يفنه الدينية التي تمت فيها صياغة اليهودية المعيارية أو اليهودية الحاخامية المنفصلة تماماً عن العبادة القرابانية ، وهو النسق الديني الذي نعرفه ، بينما اختفت القوى الأخرى مثل الأسينيين (الذين استُوعبوا في المسيحية) والصدوقيين وغيرهم .

ويمكن القول بأن الهوية العبرانية والهوية العبرانية اليهودية ذات التوجه القومي قد اختلفت تماماً عند هذه النقطة التاريخية وظهرت مراكز عديدة في بابل والإسكندرية . ولا يمكننا التحدث منذ ذلك التاريخ عن « عبرانيين » ولا عن « عبرانيين يهود » ، وإنما عن « أعضاء الجماعات اليهودية » ، وعن هوياتهم المختلفة . وقد حدث تمرُّد يهودي وهو تمرد برcko خبراً ، فقضى عليه الإمبراطور هادrian وأصدر مرسوماً بهدم القدس . ولكن ، ومع ذلك ، حينما منحت المواطنة لكل سكان الإمبراطورية عام ٢١٢ م لم يُستثن اليهود من ذلك ، وأصبحوا مواطنين رومانيين .

ويمكننا أن نحصر هنا بعض الهويات اليهودية مستخددين معيارين : أحدهما ديني والآخر قومي أو إثنبي . فعلى المستوى الديني ، كان هناك السامريون ، كتَّجمع ديني ، مقابل بقية اليهود الذين كانوا ينقسمون بدورهم إلى عدة فرق لكلٍّ فهمه الخاص لليهودية ، ومن أهمها الصدوقيون والفرسيون .

وإذا ما أخذنا بالمعيار الإثنبي ، فيمكن الإشارة إلى يهود فلسطين المتأгрقين ، وكانوا يتراکزون أساساً داخل المدن وفي أواسط الأثرياء . رغم أن التأغرق معيار إثنبي ، إلا أنه يحمل تضمينات دينية، إذ أن اليهود المتأغرقين كانوا يقفون ضدَّ كثير من الطقوس الدينية ، ويحاولون التملص منها بل والقضاء عليها بالتعاون مع

الدولة السلوقية الهيلينية . وهناك يهود فلسطين (الساميون) ، الذين كانوا يتحدثون الآرامية ويترکزون في الريف . كما كان هناك يهود فلسطين (المتهودون) من أبناء الإيطوريين والأدوميين . وهناك يهود مصر المتأخرaron (ويبدو أنه كانت هناك جماعة يهودية خارج الإسكندرية اكتسبت أيضاً الهوية المصرية المحلية ولم يكن أعضاؤها يُصنفون ضمن المتأخررين) . وهناك أيضاً يهود جزيرة إلفنتاين وكانوا يتحدثون الآرامية ، وأخيراً يهود روما (الذين كانوا يتحدثون اليونانية واللاتينية) . كما كانت تُوجَد جماعات يهودية في آسيا الصغرى وفي ليبيا (برقة) ، وفي أنحاء متفرقة من أوروبا . ويمكن أن نذكر أخيراً أهم هذه الجماعات طرًا ، وهي الجماعة اليهودية في بابل التي انفصلت عن يهود الإمبراطوريات الهيلينية ثم عن الدولة الرومانية . وقد اكتسب أعضاء هذه الجماعات كثيراً من السمات الإثنية من الحيط الحضاري الذي كانوا يعيشون فيه ، الأمر الذي أدى إلى قدر هائل من التنوع وعدم التجانس . وستظل هذه هي السمة الأساسية وال通用 للهويات اليهودية المختلفة التي ظهرت عبر العصور وفي مختلف المناطق .

وما زاد من عدم تجانس الجماعات والهويات اليهودية ، انتشار اليهود في كل أنحاء العالم دون وجود سلطة مركبة دينية أو قضائية في فلسطين أو في غيرها من الأماكن . كما لم تكن تُوجَد في العالم القديم وسائل مواصلات أو إعلام تقرب بين أطراف العالم كما يحدث الآن . لكل هذا ، تطَوَّرت كل جماعة يهودية على حدة ، بمعزل عن الأخرى ، على المستويين الديني والقومي . وقد ظلت هذه الفسيفساء قائمة إلى أن انحلت الإمبراطورية الرومانية وانتشرت المسيحية في الغرب وانتشر الإسلام في الشرق ، فظهرت فسيفساء أخرى احتفظت بعناصر من الفسيفساء القديمة ، كما دخلت عليها عناصر جديدة . وقد انقسمت اليهودية ودخلت مدارين أساسين : المدار الإسلامي والمدار المسيحي . وازدادت اليهودية توحيدية داخل المدار الإسلامي . ومن ثم ، ظهر ما يمكن تسميته «هوية يهودية عربية إسلامية» ، وهي التي أنتجت موسى بن ميمون . وقد حدث ، داخل هذا الإطار ، الانقسام الخطير الثاني ، وهو الانقسام القرائي . أما في الغرب ، فقد ازدادت اليهودية غريبة ، ودخلت عليها عناصر صوفية متطرفة . وازدادت الهوة اتساعاً بين الهويات اليهودية في الشرق والغرب . فيهود الأندلس والعالم العربي

كانوا يتحدثون العربية ويكتبون بها ، بينما كان يهود فرنسا يتحدثون بـ بـ فـرـنـسـيـة وـ يـكـتـبـون بـ العـبـرـيـة . ثـم ظـهـرـتـ الـيـدـيـشـيـة (لـغـةـ الـأـشـكـنـازـ فيـ شـرـقـ أـورـباـ) ، وـ الـلـادـينـوـ (لـغـةـ يـهـودـ السـفـارـدـ فيـ حـوـضـ الـبـحـرـ الـأـبـيـضـ الـمـتوـسـطـ) . وـ كـانـتـ هـنـاكـ بـقـاـيـاـ يـهـودـ الـرـوـمـانـيـوتـ الـذـيـنـ يـتـحـدـثـونـ الـيـونـانـيـةـ وـ يـهـودـ إـيـطـالـيـاـ الـذـيـنـ يـتـحـدـثـونـ الـإـيـطـالـيـةـ . كـماـ ظـهـرـتـ هـوـبـاتـ يـهـودـيـةـ مـخـتـلـفـةـ فـيـ أـمـاـكـنـ مـتـفـرـقـةـ ، مـثـلـ : الـخـزـرـ فـيـ مـنـطـقـةـ الـقـوقـازـ ، وـ الـفـلـاشـاهـ فـيـ إـثـيـوبـياـ ، وـ بـنـيـ إـسـرـائـيلـ فـيـ الـهـنـدـ ، وـ يـهـودـ الـصـينـ فـيـ كـايـفـنـجـ ، وـ يـهـودـ مـانـيـبـورـ ، وـ الـتـشـوـيـتـاسـ ، وـ الـيـهـودـ السـوـدـ . وـ لـمـ يـكـنـ اـنـتـمـاءـ هـؤـلـاءـ الـدـينـيـ إـلـىـ الـيـهـودـيـةـ الـخـاصـامـيـةـ ، وـ إـنـمـاـ كـانـ اـنـتـمـاءـهـمـ إـلـىـ تـقـالـيدـ دـينـيـةـ مـخـتـلـفـةـ دـخـلـتـ عـلـيـهـاـ عـنـاصـرـ دـينـيـةـ وـ إـثـنـيـةـ مـحـلـيـةـ . وـ كـانـ يـوـجـدـ كـذـلـكـ يـهـودـ إـيرـانـ وـ أـفـغـانـسـتـانـ الـذـيـنـ يـتـحـدـثـونـ الـكـرـدـيـةـ . وـ ظـهـرـ عـدـدـ ضـخـمـ مـنـ الـجـمـاعـاتـ الـيـهـودـيـةـ الصـغـيـرـةـ فـيـ الـقـوقـازـ مـثـلـ : يـهـودـ الـجـبـالـ وـ يـهـودـ جـورـجـياـ وـ يـهـودـ الـكـرـمـشـاـكـيـ ، وـ ظـهـرـتـ جـمـاعـاتـ يـهـودـيـةـ فـيـ جـبـالـ الـأـطـلـسـ تـتـحـدـثـ الـبـرـيـرـيـةـ . وـ مـنـ الـانـقـاسـامـاتـ الـدـينـيـةـ الـمـهـمـةـ ، ظـهـورـ الـحـرـكـةـ الـشـبـابـيـةـ وـ ظـهـورـ يـهـودـ الـمـارـانـوـ فـيـ حـوـضـ الـبـحـرـ الـأـبـيـضـ الـمـتوـسـطـ وـ يـهـودـ الـدـونـهـ فـيـ الـدـوـلـةـ الـعـثـمـانـيـةـ .

هذهـ هـيـ الـفـسـيـفـسـاءـ الـتـيـ كـانـتـ قـائـمـةـ حـيـنـمـاـ ظـهـرـتـ الـجـمـعـاتـ الـعـلـمـانـيـةـ فـيـ الـغـرـبـيـةـ وـ الـتـيـ زـلـزـلـتـ الـيـهـودـيـةـ الـخـاصـامـيـةـ وـ عـمـقـتـ عـدـمـ التـجـانـسـ .

التعريف الديني للهويات اليهودية

في العصور القديمة ، كانت اليهودية ديانة توحيدية في محيط وثني ، وكانت تكتسب هويتها من هذا التعارض الواضح والبسيط . أما في العصور الوسطى الغربية وفي العالم الإسلامي ، فقد اختلف الأمر تماماً ، إذ وجدت اليهودية نفسها في محيط توحيدي (إسلامي أو مسيحي) أدى إلى انطمام معالها . ولذلك ، حاول علماء اليهود أن يخلقوا هوة بين اليهود وأعضاء الديانات التوحيدية الأخرى ، وكان التلمود هو ثمرة هذه المحاولة . وخلال هذه الفترة ، ظهر تعريف الشريعة (هالاخاه) للهوية اليهودية ، فعُرِّف اليهودي بأنه من ولد لأم يهودية أو من تهود . وهذه التعريف هو الذي ساد منذ ظهور اليهودية الخامامية مع بدايات العصور الوسطى في الغرب حتى بداية القرن التاسع عشر ، وبالتالي فهو التعريف الذي يُعدُّ الإطار المرجعي لكثير من الكتابات والإشكالات التي تثار حول الهوية اليهودية . وهو تعريف ديني إثنى مُغلق يشبه إلى حدٍ ما تعريف نحميا وعزرا ولكنه مُتحرر من الارتباط بالهيكل . ولذا ، نجد أن الحاخamas عارضوا أية محاولة للعودة الفعلية ووقفوا ضد أي ما شيخ دجال من أمثال شباتي تسفي ، باعتبار أن العودة لا يمكن أن تتم إلا بأمر إلهي سيأتي في آخر الزمان ، أي أن العنصر القومي للهوية تم تسكينه وتحويله إلى تطلع ديني ، ولكنه مع هذا ظل كامناً .

وقد كانت هناك إشكالية أساسية داخل هذا التعريف تتعلق بالجانب القومي أو العرقي للتعريف ، حيث يتضمن أن من يُولد لأم يهودية يظل يهودياً حتى ولو لم يمارس تعاليم الدين اليهودي ، فهو يهودي بالمعنى الإثنى . أما اليهودي المتهود ، فكان عليه أن يقوم بتنفيذ جميع الأوامر والتواهي ، أي يجب أن يكون يهودياً بالمعنى الديني . لكن هذه الإشكالية كانت ، هي الأخرى ، في حالة كُمون لأن عدد اليهود المتهودين كان صغيراً إلى حدٍ كبير ، كما أن ترابط الجماعات الدينية والإثنية ، في العالمين الإسلامي والمسيحي ، كان قوياً لدرجة أن أي يهودي يترك

دينه كان عادةً ما يتبنى ديناً آخر ويندمج في المجتمع الخارجي وينصهر فيه تماماً ، الأمر الذي يحل الإشكالية . وكان الفيلسوف إسبينوزا أول يهودي يترك الدين اليهودي ولا يتبنى ديناً آخر ، أي أنه كان أول يهودي إثني وعلمي .

وعلى أية حال، فإن المشكلة كانت تظهر عند إقراض النقود بالربا، فاليهودية تبيح لليهودي أن يقرض غير اليهودي بالربا، لكنها تحرم إقراض بنى ملته . فإذا ما طلب يهودي مُتنصر قرضاً من أحد المرابين اليهود، كانت قضية يهوديته تطرح نفسها . وقد أفتى بعض الحاخamas بأن مثل هذا اليهودي المتنصر يجوز إقراضه بالربا لأنه ليس يهودياً على الإطلاق، ولكن أغلبية الحاخamas أفتوا بأنه يهودي حسب الشريعة اليهودية، لأنه ولد لأم يهودية (أي أنه يهودي بالمعيار العرقي) .

وفي القرن الثامن ، شهدت اليهودية حركة إصلاح ديني من جانب القراءين الذين تأثروا بالتراجم الدينية الإسلامية وعلم الكلام والنزعة العقلانية في التراث الديني الإسلامي ، فرفضوا الشريعة الشفهية التي جمعت معظم أحكامها في التلمود ، ونادوا بأن لا قداسة إلا للتوراة وحسب . أما الشريعة الشفهية ، فهي مجرد تفسيرات واجتهادات غير ملزمة . وهو موقف مختلف تماماً عن موقف اليهودية الحاخامية التي ترفع الشريعة الشفهية (أي تفسيرات الحاخamas) إلى مرتبة التوراة ، بل إلى مرتبة أعلى منها أحياناً . ومن ثم ، حدث انقسام كاملٌ بين الفريقين . وكان الفقه اليهودي يواجه دائمًا مشكلة ما إذا كان القراءون يهوداً أم لا ؟ وهل يحل الزواج بهم أم يُعد زواجاً مُحتطاً ؟ .

ومن أهم المشاكل الأخرى التي واجهها الفقه اليهودي ، مشكلة يهود المارانو (اليهود المتخفون) الذين لم يتركوا شبه جزيرة أييريا وظاهروا باعتناق المسيحية بعد استرداد المسيحية لهذه الجزيرة ، واحتفظوا بانتمائهم اليهودي سراً . ويرى الفقه اليهودي أن اليهودي الذي اضطر إلى اعتناق دين آخر يظل يهودياً ، ويكتبه أن يعود إلى حظيرة الدين متى سنت له الفرصة . ولكن كثيراً من المارانو اعتنقوا المسيحية بإرادتهم للاحتفاظ بمتلكاتهم وثرواتهم ، كما أنهم لم يفروا من شبه جزيرة أييريا حينما سنت لهم الفرصة . بل إن انتماءهم اليهودي ضعف بشكل واضح بمرور الزمن ، ولم يبق منه سوى قشرة رقيقة أو بضعة طقوس . وفي النهاية ، أصبح من الصعب عليهم التأقلم مع اليهودية الحاخامية أو المعيارية كما حدث لإسبينوزا (ولاورييل داكوستا من قبله) . بل إن ثمة نظرية حديثة تذهب إلى أن

المارانو كانوا مسيحيين صادقين في مسيحيتهم ، وأن بعض العناصر داخل الدولة الإسبانية هي التي قامت بتوجيه تهمة المارانية لهم لوقف حراكهم الاجتماعي ، إذ أن هؤلاء المسيحيين الجدد ، كما كانوا يُسمون أحياناً ، كونوا طبقة وسطى صاعدة وقوية كانت تهدد مصالح بعض الطبقات المهيمنة .

وقد شكل يهود الدونمـه من أتباع شبـتـاي تـسـفـي مشـكـلةـ أخرى ، فقد اعـتـنـقـوا الإـسـلـامـ عـلـنـا ، وـأـبـقـواـ عـلـىـ اـنـتـمـائـهـمـ اليـهـودـيـ سـرـاـ . ولـمـ يـكـنـ الفـقـهـ اليـهـودـيـ ، مـنـذـ أـيـامـ مـوـسـىـ بـنـ مـيـمـونـ ، يـعـتـبـرـ اـعـتـنـاقـ الإـسـلـامـ مـنـ جـاـنـبـ اليـهـودـ شـرـكـاـ أوـ إـنـكـارـاـ لـوـحـدـانـيـةـ اللـهـ (ـعـلـىـ خـلـافـ التـنـصـرـ) . وبـالـتـالـيـ لمـ تـكـنـ هـنـاكـ مشـكـلةـ مـنـ النـاحـيـةـ النـظـرـيـةـ عـلـىـ الـأـقـلـ . لكنـ الدـوـنـمـهـ لـمـ يـرـغـمـواـ عـلـىـ اـعـتـنـاقـ الإـسـلـامـ ، كـمـاـنـ الـادـعـاءـاتـ الـمـشـيـحـانـيـةـ لـقـائـدـهـمـ قـوـبـلـتـ بـحـربـ شـرـسـةـ مـنـ جـاـنـبـ الـخـاـخـامـاتـ الـذـيـنـ أـعـلـنـواـ أـنـهـاـ هـرـطـقـةـ وـتـجـديـفـ . وـمـعـ هـذـاـ ، كـانـ يـهـودـ الدـوـنـمـهـ فـيـ الدـوـلـةـ الـعـشـمـانـيـةـ يـدـرـسـونـ التـلـمـودـ مـعـ بـقـيـةـ أـعـضـاءـ الـجـمـاعـةـ الـيـهـودـيـةـ حـتـىـ مـنـتـصـفـ الـقـرـنـ التـاسـعـ عـشـرـ ، وـظـلـواـ مـحـتـفـظـينـ بـكـثـيرـ مـنـ طـقـوـسـهـمـ الـيـهـودـيـةـ سـرـاـ دـوـنـ أـنـ يـرـغـمـهـمـ أـحـدـ عـلـىـ ذـلـكـ ! ولـهـذـاـ كـانـ مـنـ الصـعـبـ تـقـرـيرـ مـاـ إـذـاـ كـانـ المـارـانـوـ وـالـدـوـنـمـهـ يـهـودـاـمـ لـاـ ، وـهـيـ مشـكـلةـ لـمـ يـحـسـمـهـاـ الفـقـهـ اليـهـودـيـ .

وـقـدـ اـزـدـادـ اـنـتـشـارـ أـعـضـاءـ الـجـمـاعـاتـ الـيـهـودـيـةـ فـيـ أـنـحـاءـ الـعـالـمـ ، وـازـدادـ بـشـكـلـ واضحـ غـيـابـ التـجـانـسـ الـثـقـافـيـ وـالـدـيـنـيـ بـيـنـهـمـ مـعـ الشـوـرـةـ الـعـلـمـانـيـةـ الـكـبـرـىـ الـتـيـ بدـأـتـ تـتـرـكـ أـثـرـهـاـ التـدـريـجيـ فـيـ الـجـمـاعـاتـ الـيـهـودـيـةـ (ـوـلـعـلـ ظـهـورـ الـحـرـكـاتـ الـشـبـانـيـةـ الـمـخـلـفـةـ هـوـ تـعبـيرـ عـنـ تـزاـيدـ مـعـدـلـاتـ الـعـلـمـنـةـ) .

ولـكـنـ رـغـمـ كـلـ الـمـشاـكـلـ وـالـتـوـتـرـاتـ الـدـاخـلـيـةـ وـالـخـارـجـيـةـ ، فـإـنـ تـعـرـيفـ الشـرـيعـةـ للـيـهـودـيـ (ـمـنـ وـلـدـ لـأـمـ يـهـودـيـةـ أـوـ تـهـوـدـ) ، وـهـوـ تـعـرـيفـ الـحـاخـامـيـ الـأـرـثـوذـكـسـيـ ، كـانـ تـعـرـيفـاـ مـقـبـلـاـ وـيـصـلـحـ أـسـاسـاـ لـلـتـفـرـقـةـ بـيـنـ الـيـهـودـ وـغـيـرـ الـيـهـودـ . وـلـكـنـ الـوـضـعـ اـخـتـلـفـ تـمـاماـ مـعـ ظـهـورـ الـعـلـمـانـيـةـ الـتـيـ بدـأـتـ تـتـرـكـ أـثـرـهـاـ التـدـريـجيـ فـيـ الـجـمـاعـاتـ الـيـهـودـيـةـ إـلـىـ أـنـ دـخـلـتـ الـيـهـودـيـةـ فـيـ الـغـرـبـ مـرـحـلـةـ الـأـزـمـةـ ، فـظـهـرـ فـكـرـ حـرـكـةـ التـنـوـيرـ ثـمـ ظـهـرـتـ الـيـهـودـيـةـ الـإـصـلـاحـيـةـ وـمـنـ بـعـدـهـاـ الـيـهـودـيـةـ الـمـحـافظـةـ وـالـيـهـودـيـةـ التـجـديـدـيـةـ وـلـاـ تـعـرـفـ الـيـهـودـيـةـ الـأـرـثـوذـكـسـيـةـ بـأـتـبـاعـ هـذـهـ الـفـرـقـ أـوـ بـحـاخـامـاتـهـاـ يـهـودـاـ . هـذـاـ إـلـىـ جـانـبـ اـنـتـشـارـ نـزـعـاتـ الـإـلـحـادـ وـالـشـكـ الـدـيـنـيـ بـيـنـ الـيـهـودـ ، وـظـهـورـ مـاـ يـسـمـيـ «ـالـيـهـودـيـةـ الـإـثـنـيـةـ»ـ (ـفـيـ الـوـلـاـيـاتـ الـمـتـحـدـةـ وـرـوـسـيـاـ وـأـوـكـرـانـيـاـ وـغـيـرـهـمـاـ مـنـ كـوـمـنـوـلـثـ

الدول المستقلة) وهي يهودية من لا يؤمنون بالعقيدة اليهودية وإن كانوا يمارسون بعض شعائرها باعتبارها شكلاً من أشكال الفلكلور الذي يدعم إثنيتهم اليهودية ويرفع روحهم المعنوية. كما ظهرت اليهودية الإنسانية التي تحاول أن تؤسس عقيدة يهودية لا تستند إلى الإيمان بالشريعة المُوحَى بها وإنما بالقيم الإنسانية العامة. وظهرت أيضاً جماعات يهودية أخرى مثل العلماء اليهود الذين يؤمنون بأن الطب الحديث لا طائل من ورائه ، وبأن سر الشفاء يوجد في العهد القديم ، وكانوا في الواقع متأثرين بفرقة دينية مسيحية تُسمى «العلماء المسيحيون» . وانضم كثير من اليهود إلى فرق الموحدانيين (يونيتريان Unitarian) المسيحية ، واحتفظوا في الوقت نفسه بيهوديتهم . بل وظهرت جماعة تُسمى «اليهود من أجل المسيح» ، وقد اعتنق هؤلاء المسيحية ، واعتبروا المسيح عيسى بن مریم هو الماشيَّح اليهودي ، ولكنهم لم يعترفوا ببنوته للرب ، وهكذا . وقد أصر كل هؤلاء (رغم إلحادهم الكامل أو رفضهم معظم مقولات الشريعة اليهودية) على أن يُسموا «يهوداً» ، الأمر الذي ولد موقفاً غريباً إلى أقصى درجة وهو أن الغالبية العظمى ليهود العالم لم تُعد تلتزم بالشريعة اليهودية ، ولم يُعد ينطبق عليها مُصطلح «يهودي» ، حسب التعريف الحاخامي ، ولكن هذه الغالبية تصرُّ في الوقت نفسه على الاحتفاظ بلقب «يهودي» ، بينما لا توجد سوى أقلية صغيرة للغاية ملتزمة بالشريعة تحتفظ هي الأخرى بلقب «يهودي» وتدعى لنفسها حقاً أن تقرر من هو اليهودي ، ولذا فهي تذهب إلى أنأغلبية اليهود الساحقة ليسوا يهوداً! وقد صرَّ آفى بيكر ، محرر إحدى التقارير التي أصدرها المؤتمر اليهودي عن أوضاع الجماعات اليهودية في العالم أن الانفصال بين اليهود الأرثوذكس واليهود العلمانيين قد خلق شعبيين مختلفين لا يتفاعلان .

آخرية العامة للهويات اليهودية في الوقت الحاضر .

لاحظنا التطور التاريخي للهويات اليهودية المختلفة والذي نجم عنه ظهور هويات لا حصر لها ولا عدد . كما لاحظنا أن تعريف الشريعة اليهودية لمن هو اليهودي كان تعريفاً يعاني من الخلل ، فلا هو بالديني ولا هو بالعرقي ، بل يجمع عناصر دينية وعرقية دون تعريف حدود كل عنصر . وقد زادت الصورة اختلاطاً وسوءاً مع ظهور الفرق اليهودية الحديثة ، وظهور اليهودية الإثنية والإنسانية ، وإصرار كل هؤلاء على أن يسموا أنفسهم يهوداً .

كل هذا يعني أن كلمة «يهودي» تشير إلى أشخاص يؤمنون بأساس دينية متعارضة من بعض النواحي ، وينتمون إلى تشكيلات حضارية مختلفة ، أي أنها دال يشير إلى مدلولات دينية وقومية مختلفة . ولتوسيع الصورة قليلاً ، يمكن القول بأن مصطلح «يهودي» كان يشير ، منذ نهاية القرن التاسع عشر وحتى عشية ظهور الدولة الصهيونية ، إلى عشرات الهويات والانتماءات الدينية والوثنية والطبقية :

١ - يهود اليديشية ، ويُطلق عليهم عادةً يهود شرق أوروبا أو الأشكناز . وهم أكبر القطاعات اليهودية في العالم . وكان هؤلاء يوجدون في أوكرانيا ومنطقة الاستيطان اليهودية في روسيا وبولندا . وكانوا ينقسمون بدورهم إلى قسمين أساسيين :

أ) يهود متدينون يعرفون يهوديتهم على أساس ديني .

ب) يهود تمت علمتهم ويعرّفون يهوديتهم على أساس إثني .

وكان معظم أعضاء هذا التجمع اليهودي يتحدثون اللغة اليديشية ، وقد حملوها معهم إلى إنجلترا والولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية وجنوب أفريقيا ، ولكن كانت بينهم قطاعات تتحدث البولندية والأوكرانية والروسية والألمانية .

٢ - يهود العالم الغربي المندمجون الذين كانوا يتحدثون لغة بلادهم . وهؤلاء كانوا ينقسمون إلى عدة أقسام ، فمنهم يهود متدينون يعرفون أنفسهم على أساس دينية مختلفة (إصلاحى - محافظ - تجديدى - أرثوذكسي) ومنهم أيضاً يهود لا دينيون . وأكبر تجمع لهؤلاء يوجد في الولايات المتحدة . وقد تزايد عددهم بوصول يهود اليديشية الذين اندمجوا بدورهم في المجتمعات التي وصلوا إليها ، واكتسبوا سماتها الإثنية والحضارية ، وفقدوا هويتهم السلافية اليديشية وظهر ما نسميه « الهوية اليهودية الجديدة ». كما أن العناصر السفاردية في المجتمعات الغربية اندمجت هي الأخرى في محیطها الحضاري ، خصوصاً وأن أعدادهم كانت صغيرة .

٣ - يهود أمريكا اللاتينية الذين يتحدثون الإسبانية والبرتغالية أساساً . وقد انضم إليهمآلاف من يهود اليديشية واليهود السفاردي من العالمين الغربي والعربي . وقد احتفظت كل جماعة يهودية مهاجرة بلغتها و هويتها التي أحضرتها من بلداتها الأصلي لأن المجتمع الكاثوليكي اللاتيني كان محتفظاً بهويته ، فكان التعبير عن الهوية اليهودية هو ذاته صدى لبني المجتمع المضيف . وحينما بدأ المجتمع اللاتيني يفقد هويته بالتدريج ، وبدأت تصاعد فيه معدلات العلمنة ، أخذ أعضاء الجماعات اليهودية يفقدون هم أيضاً هويتهم ويندمجون ، ولكن في محیطهم اللاتيني .

٤ - يهود الشرق والعالم الإسلامي والعالم العربي ، وكان من بينهم اليهود العرب (اليهود المستعربة) ، واليهود السفارديون الذين يتحدثون اللادينو ، وكانت توجد جماعات كبيرة منهم في العالم العربي ، وقد انضم إليهم أعداد كبيرة من يهود اليديشية ، ويهود البلاد الغربية (خصوصاً فرنسا) . كما تم صبغ كثير من اليهود المحليين العرب بالصبغة الغربية ، وحصلت أعداد كبيرة منهم على جنسيات أوروبية .

٥ - الجماعات اليهودية المتفرقة (مثل الفلاشا وبني إسرائيل) التي استمر معظمها في البقاء ، ولم يختلف في واقع الأمر سوى يهود الخزر ، إذ لا يزال يوجد بعض أعضاء من يهود كاييفنچ ومئات وربماآلاف من يهود المارانو والدونمه ، وإن كان ثمة نظرية تذهب إلى أن اليهود القرائين الذين يتحدثون التركية هم من بقايا يهود الخزر .

٦ - تم تصنيف جميع الجماعات السابقة إلى يهود غربيين يُسمون «الأشكناز»، ويهدود شرقيين يُسمون «السفراد» (أحياناً) ب رغم خطأ التسمية .

٧ - نحن نرى أن كل التقسيمات السابقة آخذة في الاختفاء وأن ثمة ثلاثة أقسام أساسية الآن في العالم :

أ) خارج فلسطين ، ظهر ما يمكن تسميته «الهوية اليهودية الجديدة» وهي هوية ظهرت في المجتمعات الغربية الحديثة ، وهي ذات ملامح يهودية إثنية أو دينية ، ولكن البعد اليهودي فيها هامشي ، لا يؤثر في سلوك أعضاء الجماعات اليهودية ، إذ أن ما يحكم هذا السلوك هو الرؤية العامة السائدة في المجتمع (المتعة واللذة) والتي توجه سلوك المسيحيين واليهود والبوذيين والملحدين ... إلخ .

ب) داخل المستوطن الصهيوني ظهرت هوية جديدة تماماً لا علاقة لها بكل الهويات السابقة ، وهي جيل الصابرا ويتبع الدارسون بأن هؤلاء الصابرا سيكونون أغياراً يتحددون العبرية لاتربطهم بأعضاء الجماعات اليهودية في العالم سوى روابط واهية لا تختلف كثيراً عن علاقة اليونانيين المحدثين بالاغريق القدماء . ويعيل كثير من علماء الاجتماع إلى أن اليهود المولودين في إسرائيل ينقسمون أيضاً إلى شرقيين وغربيين ، ومن ثم يُطلق مُصطلاح «الصابرا» في واقع الأمر على أولاد اليهود الغربيين وحدهم .

ج) يهود متدينون (أرثوذكس) وهم أقلية صغيرة خارج إسرائيل وأقلية كبيرة داخلها .

والصورة ، كما نرى ، مركبة وغير متجانسة على جميع المستويات . فهذه الجماعات التي كانت تفصل بعضها عن البعض هوة من الخلافات الدينية ، وكانت تتحدث عشرات اللغات واللهجات ، تقع ضمن تشكيلات اجتماعية وثقافية لا حصر لها ، ابتداءً من يهود الغرب المندمجين في مجتمعاتهم الرأسمالية ومروراً بيهود اليمن الذين يشكلون جزءاً متكاملاً من مجتمعهم العربي بكل فنونه وتقاليد ومزايده وعيوبه، وانتهاءً بيهود الفلاشا (في إثيوبيا) الذين ينتمون إلى تشكيل قبلي بسيط ويتحدثون الأمهرية لغة أغلبية أهل إثيوبيا ويتبعون بالجعزية لغة الكنيسة القبطية فيها أو يلاحظ هنا كيف يتداخل الانتماء الإثنى مع الأبعاد الدينية . وربما كان هذا التداخل هو ما جعل مندوب الوكالة اليهودية في

الخمسينيات لا يتردد في أن ينصح الفلاشاو بحل مشاكلهم كلها لا بالهجرة إلى إسرائيل وإنما عن طريق التنصر والانضمام إلى الكنيسة القبطية في إثيوبيا !

وهذه الهويات اليهودية المختلفة لا وجود لها خارج محيطها الحضاري . فإن فقد يهود الفلاشاو الأمهرية والجعزية والشعائر الدينية المختلفة التي استقروا من محيطهم الحضاري ، فإنهم يفقدون هويتهم التي يُقال لها «يهودية» . ويسري الشيء نفسه على يهود الولايات المتحدة ، فخصوصيتهم نابعة من انتمائهم إلى المجتمع الأمريكي ، ولا يمكن تخيلهم خارج هذا المحيط الثقافي .

وإذا كانت هناك هوية يهودية مستقلة نسبياً عن محيطها الحضاري ، فهذا لا يعني بالضرورة أن هناك هوية يهودية عالمية واحدة متربطة . الواقع أن هناك هويات يهودية مختلفة متعددة بعدد المجتمعات التي تتواجد فيها هذه الهويات ، إذ أن انفصالتها النسبية لم يؤد بالضرورة إلى ترابط الواحدة مع الأخرى . فيهود شرق أوروبا كانوا يكتسبون هويتهم الشرق أوربية اليهودية من خلال اليديشية . وكان اليهود السفاردي يكتسبون هويتهم الإسبانية من خلال اللادينو . وكانت كل من اليديشية واللادينو تعزل أعضاء الجماعة عن محيطهم . ومن ثم كان الصدام بين السفاردي والأشkenاز حاداً دائماً في جميع نقط التماس ، سواء في أوروبا في القرن السابع عشر أو في العالم الجديد في القرن الثامن عشر أو في المستوطن الصهيوني في القرن العشرين .

الهوية اليهودية الجديدة في المجتمعات الغربية الحديثة

«الهوية اليهودية الجديدة» مُصطلح قمنا بصفته لوصف الهوية اليهودية الجديدة التي نشأت تدريجياً في العالم الغربي بعد عصر الانعتاق وتصاعد معدلات العلمنة حتى أصبحت النموذج السائد فيه. واليهود الحدد هم أصحاب هذه الهوية الجديدة . ويمكن القول بأن الهويات اليهودية المختلفة ، بعامة ، قد تحدّدت معالها وتشكل مضمونها في المجتمعات التقليدية (قبل الرأسمالية) بطريقة مختلفة عن تشكّلها في المجتمعات العلمانية الحديثة . فالمجتمعات التقليدية هي مجتمعات تدور حول منظومة عقائد تستند إلى ميتافيزيقاً ومطائق معرفية وأخلاقية ويأخذ تقسيم العمل فيها شكل الفصل الحاد بين الطبقات والأقليات والجماعات . وبذا اضطلع اليهود فيها بدور الجماعة الوظيفية الوسيطة (وأحياناً العميلة) المنغلقة على نفسها، شأنهم في هذا شأن الأرمن في تركيا والصينيين في جنوب شرق آسيا .

لكن يهود العالم الغربي ، شأنهم شأن بقية قطاعات المجتمع الغربي ، خضعوا بعد القرن التاسع عشر لعملية ضخمة من العلمنة والتحديث ، ووجدوا أنفسهم يتفاعلون مع بيئة حضارية وسياسية مختلفة تماماً عما أفوه من قبل ، فقد تزايد معدل العلمنة في المجتمعات الغربية إلى أن أصبحت المجتمعات تهيمن عليها العقيدة العلمانية (الشاملة) التي لا تتبنى أية معايير دينية أو أخلاقية للحكم على الفرد . فهي مجتمعات تدور حول مبادئ المنفعة واللذة وحول مفهوم الإنسان الطبيعي (الاقتصادي والجسmani) ، ولا تحكم على الفرد إلا على أساس كفاءاته ومدى نفعه وتكييفه مع قيم المجتمعات بحيث يصبح مواطناً يتوجه ولاؤه نحو الدولة وخدمة مصلحتها ، قادرًا على البيع والشراء والبحث عن اللذة وتعظيم الإنتاج والإشباع والقتال حينما يُطلب منه ذلك .

وتتسنم هذه المجتمعات بترابع العقيدة المسيحية وعدم الاكتتراث بها وبكل الأديان والقدسات والغيببيات . ففي الماضي ، أي حتى منتصف القرن التاسع عشر وربما أواخره ، كان على اليهودي الذي يود الاندماج الكامل في مجتمعه أن يُغيّر دينه ويعتنق ديناً آخر ، أي المسيحية ، كما فعل هايني ووالدا كلٌ من ماركس وذرائيلي . ولكن المسيحية دين له رموزه المركبة والمعادية لليهود والمسيحية ، ولذا كانت تجربة التنصير مريرة ولا شك . أما يهود العالم الغربي في الوقت الحاضر ، فيتمكن من يريد منهم أن يتخلّى عن دينه أن يفعل ذلك ببساطة شديدة دون أن يُضطر بالضرورة إلى التنصير أو اعتناق أي دين آخر (كما فعل الفيلسوف إسپينوزا أول يهودي إثنى) ، وبوسعه بعد ذلك أن ينتظم في صفوف الملايين التي تدخل الآلة الرشيدة اليومية والتي يتم تنميتها من الداخل والخارج بشكل دائم من خلال البنية التحتية المادية والمؤسسات الإعلامية والتربوية . وهذه الملايين لا تكترث بالخصوصية ، إلا باعتبارها مصدراً متجدداً للمتعة والإثارة . وهذه المجتمعات الغربية التي يعيش فيها اليهود الجدد لا تهتم كثيراً بالدين (أو أية أبعاد معرفية كليلة نهائية) ، ولذا فهو لا يُوجه سلوك أعضائها ولا روّيthem لذاتهم أو للواقع ، وإن كان هناك بعد ديني فهو عادةً هامشي ضامر . وهي مجتمعات لا ترى اليهودي باعتباره قاتل المسيح أو عدو الإله ، ولا ترى اليهود باعتبارهم الشعب الشاهد . وأعضاء هذه المجتمعات قد يشرترون عن التراث اليهودي / المسيحي ولكن الإنسان بالنسبة لهم ، في التحليل الأخير ، هو الإنسان الاقتصادي المنتج والمستهلك ، والإنسان الجسماني ، الباحث عن المتعة . وهي مجتمعات لم تَعد تكترث كثيراً بالشعائر المسيحية ولا بالأعياد المسيحية باستثناء الكريسماس الذي فُرغ من مضمونه الديني وأصبح مناسبة اجتماعية وموسمًا للاستبضاع . وبدلًا من العقيدة المسيحية ، ظهرت مجموعة من العقائد العلمانية المختلفة (مثل الوجودية والماركسيّة والنازية والليبرالية أو حتى الاستهلاكية) يمكن أن يؤمن بها كل من يشاء .

ولا تمارس هذه المجتمعات أي تمييز ضد اليهود أو ضد أية أقلية أخرى، فرقعة الحياة (العلمانية) العامة مفتوحة أمام الجميع ، وبإمكان الجميع الالتقاء فيها بعد أن يطربوا جانباً خصوصياتهم الثقافية والدينية، أو بعد أن يتركوها في منازلهم في رقعة الحياة الخاصة (وقد طلبت حركة الانعتاق من اليهودي أن يكون يهودياً في

المنزل مواطناً في الشارع). وفي رقعة الحياة العامة يمكنهم أن ينخرطوا، ما حلا لهم الانخراط، في البيع بأعلى الأسعار ، والشراء بأرخصها ، والبحث الدائم (المنهجي أو التلقائي) عن اللذة وعن التخفيضات والأوكازيونات ، دون أي تمييز على أساس العقيدة أو الجنس أو اللون . ومن ثم لا يوجد أي تمايز ثقافي أو وظيفي أو مهني لليهود في مواجهة غيرهم ، وإن كان هناك مثل هذا التمايز فهو من رواسب الماضي ، فالجميع يتلقى على أرض علمانية صلبة .

هذه صورة المجتمع العلماني النماذجية ، أي أنها صورة غير واقعية ولكنها ، مع هذا ، ممثلة للواقع . وداخل هذا الإطار ، ظهرت الهوية اليهودية الجديدة ، التي نطلق على أصحابها مُصطلح «اليهود الجدد» لتمييزهم عن يهود ما قبل القرن التاسع عشر وعن يهود مرحلة الاعتقاد . وفي بعض الدراسات المتخصصة ، يُقال لليهود الجدد «يهود ما بعد مرحلة الاعتقاد» ، كما يمكن أن يُشار إليهم ببساطة بوصفهم «يهود العالم الغربي» ، أو «اليهود الغربيون» ، مع إسقاط المصطلحات التي تشير إلى هويات إثنية أو إثنية دينية مختلفة ، مثل : «يهود اليديشية» أو «السفراد» أو «الأشكناز» ، لأنها لم تَعُد تصلح إطاراً مرجعياً . فالليديشية اختلفت تقريراً ، كما اختلفت أية ملامح إثنية أتى بها المهاجرون اليهود من أوطانهم الأصلية . وأهم كتلة يهودية بين اليهود الغربيين تمثل في الأميركيين اليهود (وليس اليهود الأميركيين) الذين استُوعبوا في الحضارة الأمريكية تماماً ولا وجود لهم خارجها ولا يمكن فهم سلوكيهم دون الرجوع إليها .

والأميركيون اليهود هم أهم قطاعات هؤلاء اليهود الجدد وأكبرها ، إذ يشكلون نحو ٩٠٪ منهم ، ويمثلون جماهير الصهيونية الغربية وعمودها الفكري ويؤثرون في صنع القرار الأميركي ، وحيث إن يهود أوروبا الغربية بل ويهود أوروبا الشرقية أيضاً آخذون في التلاشي (باستثناء يهود فرنسا التي هاجر إليها يهود المغرب) ، فإننا نستخدم أحياناً مُصطلح «اليهود الجدد» كمرادف لـ«الأميركيون اليهود» . وقد ساهمت خصوصية الولايات المتحدة الأمريكية في سرعة ظهور الهوية اليهودية الجديدة وفي بلوورتها ، وتمثل هذه الخصوصية في العناصر التالية:

١ - المجتمع الأميركي مجتمع استيطاني يتكون من فسيفساء إثنية . ورغم أن ثمة نواة بروتستانتية بيضاء أسست المجتمع وشكلت أغلبية أعضاء النخبة ، فإن المجتمع لا تُوجَد فيه أغلبية متجانسة . ولذا ، لا يشكل اليهود الأقلية الإثنية أو

الدينية الوحيدة ، وإنما توجد بالإضافة إليهم عشرات الأقليات الأخرى ، مثل الإيطاليين والأيرلنديين والمهاجرين ذوي الأصل الإسباني من بورتوريكو وأمريكا اللاتينية ، إلى جوار العرب والسلاف . كما تُوجَد الآن أعداد كبيرة من الآسيويين من الهند والصين واليابان ، وهناك أيضاً أعداد كبيرة من الأقليات الدينية من كل شكل ولون .

٢ - المجتمع الأمريكي مجتمع جديد منفتح يوجد فيه مجال للريادة والاستثمارات والحركة الاجتماعي ، الأمر الذي يسرّ لاعضاء الجماعات اليهودية أن يحققوا كل إمكانياتهم الاقتصادية وأن يستثمروا كفاءاتهم ورؤوس أموالهم بشكل كامل . والمجتمع الأمريكي الرأسمالي ، الذي تشغله قطاعات ضخمة بالتجارة والبيع والشراء والأعمال المالية ، لم يفرض على أعضاء الجماعات اليهودية دور الوسيط ، ولم يُحرِّم عليهم أي نشاط اقتصادي .

٣ - لم يمارس المجتمع الأمريكي أي تمييز ضد أعضاء الجماعات اليهودية في الحقوق السياسية أو المدنية ، بل منحهم هذه الحقوق كاملة منذ البداية . ولم يُظهر هذا المجتمع سوى أشكال طفيفة من التفرقة الاجتماعية (هي شكل من أشكال التحامل أكثر من كونها تفرقة عنصرية) مثل حرمان اليهود من عضوية النوادي الاجتماعية الأرستقراطية أو التعيين في بعض المناصب الحيوية . وقد تهاوت هذه الحاجز ذاتها في أوائل السبعينيات حين عُين كيسنجر وزيراً للخارجية عام ١٩٧٣ ، وإرفينج شابيرو مديرًا لوحدة من أكبر الشركات الأمريكية (شركة دي بونت) عام ١٩٧٤ .

٤ - المجتمع الأمريكي مجتمع ليس له تاريخ طويل أو تراث مُركَب ، ومن ثم لا تسيطر عليه أية أساطير عرقية أو مفاهيم دينية قديمة ذات امتداد زمني أو ذات جذور تاريخية راسخة . وإن كانت هناك رواسب حملتها بعض المهاجرين معهم ، مثل الأيرلنديين أو الألمان وغيرهم ، فهي مجرد رواسب لم تكتسب أية مركزية ولم تضرب بجذور عميقـة . ويقول بعض علماء الاجتماع إن التعصب الأمريكي عادة ما يستهدف السود بالدرجة الأولى ، ثم الكاثوليك بالدرجة الثانية ، ولكنه لا يستهدف أعضاء الجماعات اليهودية إلا بالدرجة الأخيرة .

٥ - المجتمع الأمريكي هو أكثر المجتمعات علمانية على وجه الأرض ، حيث تم

فصل الدين والأخلاق وكل القيم عن الدولة وعن رقعة الحياة العامة (أي عن ٩٠٪ من حياة الإنسان الأمريكي) .

لكل هذا ، وجد المهاجرون اليهود أنفسهم في وضع حضاري جديد تماماً ، إذ أن المجتمع الأمريكي مجتمع منفتح بمعنى الكلمة ، بخلاف المجتمعات الغربية المنغلقة المثقلة بالأساطير القديمة والتقاليد التاريخية والقيم التي ورثتها . ولذلك اندمجوا فيه بسرعة وتهاوت أسوار العزلة الثقافية والاقتصادية والاجتماعية عنهم ، فلم يُضطروا إلى السكنى في أماكن خاصة بهم (الجيتو) ، ولم يُفرض عليهم أن يرتدوا أزياء مميزة . ولهذا ، اختفت بقايا ثقافة يهود اليديشية الإثنية من شرق أوروبا ، كما اختفت تقريباً اللغة اليديشية ذاتها بسرعة ، وكذلك الأمر مع المدارس ذات الطابع اليهودي التقليدي بل وغير التقليدي .

ومع هذا ، يمكن القول بأن الهوية اليهودية الجديدة في الولايات المتحدة ، رغم تبلورها بسرعة وبشكل حاد ، فإنها لا تشكل سوى حالة متقدمة من ممتالية نماذجية آخذة في التتحقق . فالهوية اليهودية الجديدة هي ثمرة التفاعل التلقائي واليومي بين أعضاء الجماعات اليهودية ومجتمعاتهم العلمانية ، إلا أنها في الوقت نفسه ثمرة تخطيط واع . فبعد انهيار أسوار الجيتو ، وفتح أبواب الانعتاق ، والاندماج ، أدرك بعض قيادات الجماعات اليهودية الفكرية ضرورة تحديد الهوية اليهودية لتفق مع الأوضاع الجديدة ، بكل ما تعطيه لليهود من حقوق جديدة ، وبكل ما تلزمهم به من واجبات جديدة أيضاً . وقد كان متصوراً أن تحديد الهوية اليهودية هو السبيل الوحيد لاحتفاظ اليهودي بيهوديته (الدينية أو الإثنية) وتحقيق الاستمرار لها داخل مجتمعات ما بعد الانعتاق ، لأن الاصطدام بالمنظومة العلمانية أمر لا جدوى له . ولكن ما حدث كان عكس المتوقع . إذ اندمج اليهود تماماً في مجتمعاتهم بحيث أصبحت أنماط سلوكهم وأسلوب حياتهم لا تختلف كثيراً عن الأنماط والأساليب السائدة في مجتمعاتهم ، كما أن أحلامهم وطموحاتهم لا تختلف عن أحلام وطموحات معظم أعضاء مجتمعاتهم التي ارتفعت فيها معدلات العلمنة . أما البعد اليهودي في هويتهم فقد أصبح هامشياً للغاية ، وظهر أن الهوية اليهودية الجديدة (من منظور خصوصيتها اليهودية الدينية أو الإثنية) هوية هشة رخوة تنتهي إلى المظهر والقشرة لا إلى المخبر والجوهر .

على المستوى الديني ، نجد اليهودي الجديد «المتدين» (باستثناء قلة صغيرة) ينتمي عادةً إلى فرقة من الفرق اليهودية الجديدة (الإصلاحية أو الحافظة أو التجددية) التي تؤمن بصياغة مخففة للغاية من اليهودية (فهي تسمح بوجود حاخامات من النساء وبالزواج المختلط وبانضمام الشوادج جنسياً إلى المعابد اليهودية المختلفة ، بل ويوجد الآن حاخامات من الشوادج جنسياً من الجنسين ، ومدارس دينية عليها [يشيفا] يتخرج منها مثل هؤلاء الحاخامات) واليهودي الجديد قد يُصنف نفسه يهودياً متديناً ومع هذا لا ينتمي إلى أيٍ من الفرق . وهذا الانسماء الديني يأخذ شكل الإيمان ببعض الأفكار الغامضة عن وجود الإله وبعض المبادئ الأخلاقية العامة الموجودة في معظم الأديان والمنظومات الأخلاقية . وهو إيمان منفصل تماماً عن الشعائر الدينية والإثنية اليهودية ، فقد اختفت ، بشكل كامل تقريباً ، الشعائر الدينية اليومية التي تنظم حياة اليهودي بل واختفت الشعائر الأسبوعية والشهرية ولم يبق سوى الشعائر السنوية ذات الطابع الاحتفالي والتي لا تتطلب أية عملية ضبط للذات . بل ، على العكس ، يتحول الاحتفال بالشعائر إلى فرصة لتأكيد الذات والإفصاح عنها وإدخال قدر من المتعة عليها . ولذا ، تم التركيز على تلك الشعائر ذات القيمة الجمالية أو الإثنية أو تلك التي تشبه بعض الطقوس والشعائر (المسيحية) بحيث يستطيع الجميع الاحتفال بشعائرهم في ذات الوقت وفي رقعة الحياة العامة . وانطلاقاً من هذا ، نجد أن الشعائر تأخذ شكل تناول العشاء أو وجبة مطبوخة بطريقة معينة في بعض الأعياد أو إيقاد شموع السبت (لا يقيم شعائر السبت كلها سوى ٥٪ من يهود أمريكا) أو إيقاد شمعدان الحانوخاه في ديسمبر أو تزيين المنزل بشجرة الحانوخاه التي ليس لها أي مضامون ديني (وتشبه تماماً شجرة الكريسماس) . بل وهناك العم ماكس رجل الحانوخاه ، بدليل بابا نويل أو سانتا كلوز . وهذا اليهودي الجديد قد يذهب إلى المعبد اليهودي ولكنه يفعل ذلك مرة أو مرتين في السنة (عادةً في يوم الغفران وربما في عيد الفصح) . والشعائر تقام لا باعتبارها شعائر دينية وإنما باعتبارها حدثاً اجتماعياً إذ تحول الزمان الديني المقدس (بالإنجليزية : سيكرييد تايم sacred time) إلى احتفال عائلي ، أي إلى زمن عائلي (بالإنجليزية : فاميلي تايم family time) ، ثم تحول الزمن العائلي بدوره إلى « وقت الفراغ » أو « الويك إند » .

ويمكن أن يغالي اليهودي الجديد قليلاً ويصر على ضرورة ممارسة شعائر الطعام

الشرعية ولكنها عادةً ما يقيم بعضها لا كلها ، كما يمكنه أن يُصر على إقامة احتفال بلوغ سن التكليف (بارمسفاه) لأطفاله (حتى لا يختلف عن أقرانه المسيحيين من يحتفلون بتثبيت التعميد) . ولكن هذا الاحتفال ، تماماً مثل الاحتفال بالحانوخاه ، مُفرغ تماماً من أي مضمون ديني أو حتى أي مضمون إثنى حقيقي . فهو حَدَثٌ بورجوازي استهلاكي ضخم يُشبه الاحتفال بعيد الميلاد حين يحتفل الإنسان بميلاده البيولوجي لا ميلاده الديني . وبدلأً من أن يتذكر اليهودي أنه قد وصل إلى السن الذي يجب عليه أن يحمل فيها نير العهد وينفذ الوصايا والأوامر والتواهي ، فإنه يعقد حفلة فاخرة مكلفة وسوقية (تشير حفيظة كثير من الحاخامات) . وقد لخص أحد الحاخamas الموقف الديني في الولايات المتحدة بقوله : « إن يهود أمريكا قد أصبحوا أقل تديناً وأصبحت يهوديتهم أكثر تأمراً » . ويمكن إعادة صياغة هذا القول لينطبق على يهود المجتمعات الغربية ككل فنقول : « إن يهود العالم الغربي العلماني قد أصبحوا أقل تديناً وأصبحت يهوديتهم أكثر علمانية » .

أما من الناحية الإثنية ، فُيلاحظ أن اليهود الجدد يتحدثون لغة البلد الذي ينتشرون إليه وقد يستخدمون الكلمة عبرية هنا وكلمة يidisشية هناك من قبيل التظاهر الإثني ، ولكن هذا لن يعوق عملية التواصل الرشيد البرجماتي . وتُعد الإنجليزية ، وليس العبرية ، لغة معظم يهود العالم إذا أضفنا يهود أستراليا ونيوزيلندا وجنوب أفريقيا وإنجلترا وكندا إلى الأميركيين اليهود ، وهي اللغة التي يتحدثون ويحبون ويكرهون ويتبعدون ويدبرجون مؤلفاتهم الدينية والدينية بها.

ومن الواضح أن الحضارة الغربية الحديثة قد بهرت الكثيرين من اليهود وحلت محل ثقافتهم اليهودية التقليدية تماماً . وكما قال أحد المعلقين ، فإن يهود العالم الغربي يعرفون موتسارت ومايكل جاكسون ، ولكنهم لم يسمعوا قط بموسي بن ميمون ولا يعرفون عن مضمون التلمود شيئاً ، وبعضهم يصاب بصدمة عميقه حينما يعرف عن بعض جوانب التلمود المظلمة والسلبية . وغني عن القول أن النسق القيمي الذي يتبنّاه عامة اليهود الجدد والأميركيين اليهود هو نسق مادي استهلاكي ، شأنهم في هذا شأن عامة جماهير المجتمعات الغربية . والواقع أن الإسهامات الثقافية المتميزة ليهود العالم الغربي ، في مجالات الأدب والفنون التشكيلية والعلوم ، تُعدُّ من أكبر الشواهد على مدى اندماجهم في هذه الحضارة

وَتَمْلِكُهُمْ نَاصِيَةً مُصْطَلَحًا . فَهِيَ إِسْهَاماتٌ غَرْبِيَّةٌ عَلَمَانِيَّةٌ بِالدَّرْجَةِ الْأُولَى ، وَقَدْ تَكُونُ لَهَا نِبْرَةٌ يَهُودِيَّةٌ حِينَ تَتَنَاهُ أَحْيَاً مُوْضُوعَاتٍ يَهُودِيَّةٌ ، وَلَكِنَّ الْجَمَعَاتِ الْغَرْبِيَّةِ لَا تُمَانِعُ فِي هَذَا بِتَاتًاً مَا دَامَتْ هَذِهِ النِّبْرَةُ لَا تَتَعَارَضُ مَعَ أَدَاءِ الْيَهُودِيِّ فِي رِقْعَةِ الْحَيَاةِ الْعَامَّةِ . وَالْعَقْدُ اِجْتِمَاعِيُّ الْأَمْرِيَّكِيُّ يُسَمِّحُ لِلْأَمْرِيَّكِيِّينَ بِأَنْ يَحْفَظُوا بِشَيْءٍ مِّنْ عَقَائِدِهِمُ الدِّينِيَّةِ وَ ثَقَافَتِهِمُ الْأَصْلِيَّةِ بِشَرْطٍ أَلَا يَتَنَاقَصُ ذَلِكُ مَعَ الْانْتِمَاءِ الْأَمْرِيَّكِيِّ الْكَاملِ .

وَلَذَا ، يَسْتَطِيعُ الْيَهُودِيُّ أَنْ يُعبِّرَ عَنْ إِحْسَاسِهِ بِالْانْتِمَاءِ لِلتِّرَاثِ الْيَهُودِيِّ (دُونَ إِلَامِ بِهِ) ، وَأَنْ يَتَبَاهِيَ أَمَامَ الْجَمِيعِ بِذَلِكَ ، وَأَنْ يَشْعُرَ بِالْفَخْرِ بِالْإِنجَازَاتِ الْيَهُودِيَّةِ ، وَيَشْتَرِي أَعْمَالًا فَنِيَّةً يَهُودِيَّةً (نُجْمَةُ دَاؤِدَ - شَمْعَدَانُ الْمِينُورَاهَ - أَعْمَالُ شَاجَالَ - أَفْلَامُ وَوْدِيَ آلنَّ) ، وَيَشْتَرِي أَيْضًا بَعْضَ الْهَدَائِيَا التَّذَكَارِيَّةِ (سُوفِينِير) مِنْ إِسْرَائِيلَ ، وَيُسَاهمُ فِي الْمَنَاسِبَاتِ وَالْمَؤْسَسَاتِ الْخَيْرِيَّةِ وَالثَّقَافِيَّةِ الْيَهُودِيَّةِ أَكْثَرَ مِنْ أَقْرَانِهِ مِنْ غَيْرِ الْيَهُودِ . وَلَكِنَّ كُلَّ هَذِهِ أَمْوَالِ هَامِشِيَّةِ بِالنِّسْبَةِ لِانْتِمَائِهِ لِجَمَعَتِهِ وَلَا دَائِرَهُ فِي رِقْعَةِ الْحَيَاةِ الْعَامَّةِ .

وَلَا يَتَفَاعَلُ الْيَهُودُ الْجَدُّ مَعَ ثَقَافَةِ إِسْرَائِيلِ الْعَבْرِيَّةِ إِلَّا بِاعتِبَارِهَا ثَقَافَةً أَجْنبِيَّةً يَرِيَطُهُمْ بِهَا اهْتِمَامٌ خَاصٌ ، تَمَامًا مُثَلِّمًا يَتَفَاعَلُ الْمَهَاجِرُ الْإِيطَالِيُّ مَعَ الثَّقَافَةِ الإِيطَالِيَّةِ حِينَما يَدْفَعُهُ الْحَنْنِ الرُّومَانِيِّ إِلَيْهَا (نوْسْتَالْجِيَا nostalgie) وَذَلِكُ دُونَ أَنْ يَضْحَى بِهُويَّتِهِ الْأَمْرِيَّكِيَّةِ .

وَيُعَدُّ تَزَادُ مُعَدَّلاتِ الزَّوَاجِ الْمُخْتَلَطِ مِنْ أَهْمَ عَلَامَاتِ تَآكِلِ الْهُوَيَّةِ الْيَهُودِيَّةِ وَهَشَاشَتِهَا . فَقَدْ أَصْبَحَتْ هَذِهِ الْهُوَيَّةِ الْيَهُودِيَّةِ الْجَدِيدَةِ ، بِسَبِبِ هَامِشِيَّتِهَا بِالنِّسْبَةِ لِسُلُوكِ الْيَهُودِيِّ فِي الْجَمَعَاتِ الْغَرْبِيَّةِ ، لَا تُشَكِّلُ عَائِقًاً أَمَامَ الزَّوَاجِ الْمُخْتَلَطِ . فَحِينَما يَقرِّرُ شَخْصٌ غَيْرُ يَهُودِيٍّ ، مَثَلًاً ، أَنْ يَتَزَوَّجَ مِنْ يَهُودِيٍّ رَجُلًا كَانَ أَوْ امْرَأَةً ، فَإِنَّ اِنْتِمَاءَ هَذَا الْأَخِيرِ لَا يَمْسِ جَوْهَرَ رَؤْيَتِهِ لِلْكُونِ أَوْ لِنَفْسِهِ وَلَا يَؤْثِرُ فِي سُلُوكِهِ بِشَكْلٍ كَبِيرٍ . فَالْيَهُودِيُّ ، شَأنُهُ شَأنُ الْمَسِيحِيِّ ، يَؤْسِسُ حَيَاَتَهُ عَلَى أَسْسِ عَلَمَانِيَّةٍ ، وَلَذَا لَا يَتَرَدَّ الْيَهُودِيُّ فِي الزَّوَاجِ مِنْ شَخْصٍ غَيْرُ يَهُودِيٍّ . بَلْ وَيُقَالُ إِنْ إِعَادَةَ تَعرِيفِ الْهُوَيَّةِ الْيَهُودِيَّةِ لَمْ تَعُدْ تُشَكِّلْ فَقْطَ حَاجِزًاً أَمَامَ الزَّوَاجِ الْمُخْتَلَطِ ، بَلْ وَأَصْبَحَتْ حَافِزًاً عَلَى مِثْلِ هَذِهِ الزَّوَاجِ فِي الْجَمَعَاتِ الْعَلَمَانِيَّةِ ، حِيثُ يَبْحَثُ الْجَمِيعُ عَنْ مَغَامِرَاتِ جَدِيدَةٍ وَمُغَايِرَةٍ وَعَنْ أَسَالِيبِ حَيَاَةٍ مُخْتَلَفَةٍ ، وَالْيَهُودِيُّ يَتَيَّحُ هَذِهِ الْفَرْصَةُ وَيُحَقِّقُ مِثْلَ هَذِهِ الْأَمْنِيَّةَ لِمَنْ يَقْتَرَنُ بِهِ .

ومن أكبر العلامات الأخرى على الاندماج الكامل ما يُعرف بالاندماج الاقتصادي . فلم يُعد اليهود يشكلون كتلة اقتصادية مستقلة داخل المجتمعات الغربية . ولم يُعد لهم هرم وظيفي مستقل عن الهرم السائد في المجتمع (إلا من بعض الجوانب فقط) . كما لا يمكن الحديث عن «رأسمالية يهودية» أو حتى عن «رأسمالية يهودية أمريكية أو إنجليزية» ، فرؤوس الأموال التي يملكونها الرأسماليون اليهود إنما هي رؤوس أموال أمريكية أو إنجليزية ليس لها حركة مستقلة أو اتجاه مستقل ، أي أنها جزء صغير من كل أكبر . والرأسمالي أو المهني أو العامل اليهودي لا يواجه مشاكل خاصة به ، بل يواجه المشاكل نفسها التي يواجهها أقرانه في الشريحة الاجتماعية نفسها أو في المهن نفسها . ويلاحظ أن الأميركيين اليهود يتركزون في الوقت الحالي في المهن (الطب والجامعات والإعلام ... إلخ) وهو اتجاه آخر في التعمق باعتبار أن عدد الشباب اليهودي في الجامعات الأمريكية يتزايد على مر الأيام . ولكن هذا هو الاتجاه العام في المجتمعات الاستهلاكية ، إذ يزيد قطاع الخدمات تدريجياً بازدياد الرفاهية . ومع تزايد اعتماد المجتمعات الحديثة على الآلات العلمية والإلكترونيات ، يزداد احتياج المجتمع إلى المهنيين . وإذا كانت نسبة اليهود المهنيين أعلى من النسبة العامة في الولايات المتحدة ، فهذا ليس دليلاً على التمييز العنصري وإنما هو دليل على أن اليهود ، باعتبارهم أقلية ، يتسمون بقدر من الحركة أعلى من تلك التي يتسم بها بقية أعضاء المجتمع ، فيسارعون باغتنام الفرص التعليمية المتاحة ويحققون درجة من الحراك الاجتماعي تزيد عن تلك التي يحققها بقية أعضاء المجتمع ، وهم في هذا لا يختلفون عن أعضاء الأقليات الأخرى .

ويهود الدول الغربية الحديثة لا يعيشون في جيتوس مقصورة عليهم وإنما يتقرر مكان معيشتهم بحسب دخولهم وبحسب ما تمليه مصالحهم (الطبقية والمهنية والحرفية) . وقد ثجم عن هذا أن اليهود الجدد ، والأميركيون اليهود على وجه الخصوص ، يعيشون إنما في المدن الكبرى أو في مدن صغيرة أو جديدة قريبة من المدن الكبرى (الضواحي) . ويتسبب هذا التوزيع في تشتت اليهود الجدد ، وفي ابعادهم عما تبقى من مراكز الثقافة اليهودية وعن أقرانهم ، وفي اقترابهم من غير اليهود ، الأمر الذي يزيد معدل اندماجهم والزواج المختلط بينهم . ومن المفارقات التي تستحق الذكر أن الحراك الاجتماعي يُعتبر من أهم أسباب تشتت

اليهود الجدد ، وارتقائهم في سلم المجتمع وفي مراحل التعليم العالي ، وفي بحثهم الدائب عن أفضل المؤسسات التعليمية وأحسن الفرص الاقتصادية . وتكمّن المفارقة في أن القيمة الإيجابية التي يعلقها اليهود الجدد على التعليم هي نفسها التي تسبّب انتشارهم ، بكل ما يتضمنه هذا الانتشار من سلبيات من منظور التماسك الاجتماعي .

وفي هذا الإطار ، سنجد أن توجهات يهود العالم الغربي السياسية (بما في ذلك تأييدهم لإسرائيل والصهيونية) لا يختلف عن الأنماط السياسية السائدة في المجتمع ، وأن طريقة تصوّيتهم في الانتخابات لا تختلف (إلا في بعض التفاصيل) عن النمط السائد في المجتمع . فـيلاحظ مثلاً أن يهود الولايات المتحدة كانوا يتّجهون حتى عهد قريب اتجاهًا لميرالياً وكان أغلبيتهم يصوتون لصالح الحزب الديمقراطي . وهم ، في هذا ، لا يختلفون كثيراً عن أعضاء الأقليات الأخرى أو عن سكان المدن . وهم يكوّنون جماعات ضغط تتحرّك داخل النظام السياسي ولكنها لا تختلف في هذا عن الأقليات وجماعات الضغط الأخرى (فالديمقراطية الأمريكية لم تَعُدْ ديمقراطية انتخابية وإنما صارت ديمقراطية جماعات الضغط) .

وقد أدى تزايد معدلات الاندماج إلى الابتعاد عن التراث أو الموروث الثقافي التقليدي ، وبالتالي إلى ضعف الهوية الإثنية الخاصة . ومن الملاحظ أن أزمة الهوية والإحساس بالاغتراب ، وهما من الموضوعات الأساسية في الأدب الغربي الحديث وفي المجتمعات الغربية ، قد أصابا اليهود الجدد أيضًا ، ومن هنا بحثهم الدائب عن هوية . والواقع أن هذا البحث ترجم نفسه إلى حاجة نفسية لافتراض وجود ظاهرة معاداة اليهود في كل مكان . ففي غياب أي مضمون إيجابي للهوية ، يصبح الآخر المعادي عنصراً ضروريًا لوجودها ومصدراً أساسياً لها . وقد ذكر أحد المعلقين الأمريكيين أن سارتر يرى أن المعادي لليهود إن لم يجد يهوداً لاخترّعهم اختراعاً . ولكن الوضع أصبح معكوساً بالنسبة للأمريكيين اليهود واليهود الجدد ، فهم إن لم يجدوا أعداء اليهود لاخترّعهم . والمؤسسة الصهيونية تدرك هذه الحاجة النفسية للأمريكيين اليهود ، فتقوم بتعزيز إحساسهم بالخطر الحقيقي أو الوهمية الخطيرة بهم والمؤامرات التي تُحاك ضدهم ، وتوّكّد على الهولوكوست أو الإبادة النازية باعتبارها موضوعاً أساسياً فيما يُسمى « التاريخ اليهودي » وعلى إمكانية قيام أفران الغاز في بروكلين (نيويورك) أو في كولومبوس (أوهايو) أو حتى في باريس (فرنسا) أو موسكو (روسيا) .

ولكن الشكل الأساسي للهوية المعلنة بين الأميركيين اليهود واليهود الجدد بشكل عام هو إعلان انتتمائهم الصهيوني بشكل متثنج حتى يصفوا ما يشبه المضمون الإيجابي الصلب على هذه الهوية اليهودية الجديدة الهشة السطحية ، فهي تجعل الأميركي اليهودي فرداً من الشعب اليهودي القديم فخوراً بتراثه ورموزه القومية ، خصوصاً الرمز القومي الأكبر ، أي الدولة الصهيونية . ولكن ، بشيء من التحليل المتعمق ، سنكتشف أن يهود العالم الغربي والأميركيين اليهود قبلوا الصهيونية حسب شروطهم هم . ونحن نقسم الصهيونية إلى نوعين : صهيونية استيطانية ، أي أن يهاجر المواطن اليهودي من بلده ويتحول إلى مستوطن صهيوني في فلسطين ، وصهيونية توطينية أو صهيونية الغوث والمعونة والهوية ، وهذه صهيونية تترجم نفسها إلى تبرعات مالية لإسرائيل للمساعدة في توطين اليهود الآخرين ، وإلى تأييد وضغط سياسيين من أجلها ، وإلى مصدر من مصادر الهوية ، بحيث تصبح إسرائيل بالنسبة لهؤلاء الأميركيين اليهود هي البلد الأصلي (مسقط الرأس) مثل إيطاليا بالنسبة إلى الإيطاليين وأيرلندا بالنسبة إلى الأيرلنديين ولبنان بالنسبة إلى اللبنانيين ، فكان الأميركيين اليهود قد تقبلوا الصهيونية بعد أمركتها تماماً مثلما فعلوا مع اليهودية !

لكل هذا ، لا يهاجر اليهود الجدد إلا بأعداد صغيرة ، فمعدل هجرة الأميركيين اليهود في السنة هو ١٢٥٠ فقط (ولعل هذا العدد قد تزايد قليلاً مع انتشار البطالة في المجتمع الأميركي) ، ولكنهم دائماً على استعداد لإحداث الضوضاء والتظاهر من أجل إسرائيل والكتابة إلى الكونجرس ودفع التبرعات الآخذة في التناقض (لا يُساهم سوى ٢٠٪ من يهود أمريكا في الجبایة اليهودية الموحدة ، كما لُوحيظ مؤخراً أن ما تحصل عليه الجمعيات الخيرية غير اليهودية من أعضاء الجماعات اليهودية في الولايات المتحدة يزيد على ما تحصل عليه الجمعيات اليهودية) . وقد لاحظ أحد الدارسين أن الهجرة إلى إسرائيل تتناسب تناسباً عكسياً مع تصاعد نبرة هذه الصهيونية التوطينية وازدياد حدتها .

لكن الأهم من هذا كله أن هذه الصهيونية لا تشكل رؤية متكاملة للحياة ، فهي لا تتحكم إلا في جانب واحد وسطحي من الشخصية ، إذ تظل قيم اليهودي الجديد وهويته المتعينة غربية علمانية استهلاكية . وما ييسر الأمر بالنسبة إلى اليهود الجدد أنه لا يوجد أي تعارض أو تناقض بين مصالح بلادهم ومصالح إسرائيل التي تمثل هذه المصالح في الشرق الأوسط . فتأييدهم للمستوطن

الصهيوني لا يختلف في أساسياته (وإن اختلف أحياناً في نبرته) عن تأييد غير اليهود للمشروع الصهيوني . وهو تأييد مؤسسي عام تشتراك فيه الحكومات الغربية والمؤسسات الإعلامية والثقافية . وحين يُشارك اليهودي الجديد في هذا لا يعدو أن يكون صوتاً في جوقة ، يسبح مع التيار لا ضده . ويمكن الزعم بأن تأييد يهود أمريكا لإسرائيل ينبع أساساً من أمريكيتهم ، أي من انتمائهم الأمريكي وليس من خصوصيتهم اليهودية .

ولكن هذا الانتماء الصهيوني يخبيء كثيراً من التناقضات والمفارقات . فأولاً : إذا كانت إسرائيل هي حقاً البلد الأصلي ، فإن هذا يعني أنها البلد الذي هاجر منه لا البلد الذي يهاجر إليه ، أي أن الأسطورة الصهيونية في محاولة التكيف مع الواقع الأمريكي قبضت على نفسها . ثانياً : يساعد هذا الانتماء الصهيوني السطحي على مزيد من الاندماج والانصهار ، فهو انتماء إثنى لا ديني يُفقدهم ما تبقى لهم من انتماء ديني . وحيث إنهم يكتسبون سماتهم الإثنية الحقيقة من مجتمعاتهم ، فهم يزدادون في واقع الأمر تأمراً وعلمنة وتظل الاختلافات بينهم وبين بقية المواطنين باهتة وطفيفة ، ويصبح مضمون الحياة اليهودية الوحيد هو دفع التبرعات إلى إسرائيل وحضور المظاهرات التي ينصرف اليهودي الجديد بعدها إلى بيته الوثير في الضاحية ، بعد أداء واجبه تجاه هويته اليهودية الجديدة الهشة ، ليتمتع بحياة استهلاكية هنيئة ويلتهم كل أنواع الطعام ، المباح وغير المباح شرعاً . وقد لاحظ بن جوريون نفسه هذا الوضع حينما ذكر أن صهيونية يهود أمريكا (والعالم الغربي) ليست إلا غطاء لعملية الاندماج السريعة . ويمكن تلخيص الموقف بالقول بأنه من منظور الهوية بين اليهود الجديد ، يُوجد سطح صهيوني لام تزدهر فيه الهوية الإثنية الوهمية السطحية ، وباطن غربي علماني تتآكل فيه الهوية الدينية أو التقليدية وتشكل داخله الهوية اليهودية الجديدة . وإذا كان الصهاينة قد وصفوا اليهود المندمجين بأنهم المارانو الجديد (أي اليهود المتخفون ، مثل يهود إسبانيا الذين اضطروا إلى التنصر ، فاظهروا مسيحيتهم وظلوا في الباطن يهوداً) ، فيمكنا أن نصف اليهود الجديد بأنهم مقلوب المارانو ، أي أنهم يظهرون اليهودية بطريقة صاخبة ولكنهم يبطنون العلمانية والاستهلاكية والأمريكية .

ولكن كل هذا لا يعني عدم وجود تناقضات بين اليهود الجديد والمجتمعات التي ينتمون إليها ، كما لا يعني أن كل أشكال التفرقة ضدهم قد اختفت تماماً . فهناك

التوتر المتزايد بين الأميركيين اليهود والسود ، وبينهم وبين الكثير من أعضاء الجماعات المهاجرة . وهناك أشكال من التفرقة الاجتماعية غير الملحوظة (نسميه «تحامل») . ولكن مثل هذه التناقضات ومثل هذه التفرقة هي جزء من أي كيان اجتماعي . ويشبه وضع اليهود الجدد ، في كثير من نواحيه ، وضع آية أقلية في أي مجتمع غربي حديث منفتح ، وهذا الوضع شيء جديد تماماً بالنسبة إلى يهود العالم الغربي .

يهودی غیريهودی و يهودي بشكل ما

«اليهودي غير اليهودي» هو عنوان أحد كُتب المؤرخ والمفكر التروتسكي إسحق دويتشر. ويذهب دويتشر إلى أن ثمة جانباً عالمياً في اليهودية تَبَدَّى في الفكر الثوري العالمي للمفكرين اليهود أمثال إسبينوزا وماركس، فهذا الجانب العالمي دفعهم لأن يطوروا أنساقاً فكرية ثورية عالمية تجاوزت حدود اليهودية بل وحدود كثير من الأنساق الفكرية الأخرى. ومعنى ذلك أن تَحْقُّق النزعة العالمية الكامنة في اليهودية يؤدي إلى نفي اليهودية. وهؤلاء المفكرون، في تصور دويتشر، يمثلون كل ما هو عظيم في الفكر الحديث سواء في الفلسفة أو علم الاجتماع أو الاقتصاد أو السياسة في القرون الثلاثة الأخيرة. ويرى دويتشر أن السمات الأساسية لـهؤلاء المهرطقين اليهود هي ما يلي :

- ١ - الإيمان بالحتمية ، وبأن العالم يحكمه قانون .
 - ٢ - الإيمان بأن الواقع في حالة حركة دائمة وليس جامداً .
 - ٣ - عدم انفصال النظرية عن الممارسة .
 - ٤ - الإيمان بتضامن البشر في عملية انتقال إنسانية كاملة

والعناصر الثلاثة الأولى تعني ، في واقع الأمر ، الإيمان بالمرجعية المادية الكامنة ونمودج الطبيعة / المادة ، أما الرابع فهو الإيمان بعقيدة التقدم . ويضيف دويتشر أن هؤلاء المثقفين اليهود المهرطقين يعيشون على حدود الحضارات ، وهذا يعمق إيمانهم بصيورة العالم وبالتالي التضامن الإنساني العالمي .

ويكفي القول بأن المثقفين اليهود غير اليهود لا يختلفون كثيراً عن المثقفين المسيحيين غير المسيحيين . فاليهودي غير اليهودي ، هو فرد من أصل يهودي وحسب ، فقد إيمانه بمنظومته العقائدية ، وهو مع هذا لا يختلف عن المثقف من أصل مسيحي الذي فقد إيمانه بالعقيدة المسيحية ، فالجميع يلتقي في رقعة الحياة

العامة والرؤية الأممية العالمية الكوزموبوليتانية . وهذا على كلٌّ هو ميراث عصر الاستنارة الذي يسعى إلى ظهور الإنسان الأممي الذي لا يرتبط بأية خصوصيات قومية أو دينية أو طبقية ، وإن ارتبط بشيء فهو شيءٌ أمميٌ عام مثل الحفاظ على البيئة أو مصالح الطبقة العاملة التي ستلغي كل الطبقات وتحقيق المجتمع الشيوعي الذي سيسير حسب قوانين الاشتراكية العلمية .

وهناك كثير من النشطاء السياسيين في الأحزاب الشيوعية والحركات الثورية الغربية من أصل يهودي ، ولكنهم فقدوا علاقتهم باليهودية وتحولوا إلى ثوريين متطرفين يعملون من أجل المثل الثورية الأممية العالمية النابعة (كما يتصورون) من قوانين الحركة المادية الكامنة والتي تتبّدئ في جدلية التاريخ ، ومن ثم فهي مُثُل لا تعرف أية خصوصيات . وقد جعل هؤلاء الثوريون همهم القضاء على ما تبقى من جيوب إثنية يهودية (يديشية في معظمها) تحت شعار دمج اليهود في مجتمعاتهم وحل المسألة اليهودية من خلال الطرح الشوري . ومن أهم هذه الشخصيات فرديناند لاسال وكارل ماركس وروزا لوكسemburg وليون تروتسكي .

ورغم العداء الشرس من قبل هؤلاء المثقفين اليهود غير اليهود لليهود والمسيحية، ظلت الجماهير الشعبية تصنفهم على أنهم «يهود»، حتى أن الثورة البلشفية كانت تُدعى «الثورة اليهودية». ويعود هذا إلى أن أعداد هؤلاء اليهود غير اليهود في صفوف الحركات الثورية والاشراكية ، بل وفي قياداتها ، كان أمراً ملحوظاً . ولكن هناك بعدها خاصاً للقضية في شرق أوروبا (حيث كانت تُوجَّد غالبية اليهود وحيث استولت الأحزاب الشيوعية على نُظم الحكم) . فأعضاء الجماعات اليهودية كانوا يلعبون دور الجماعة الوظيفية في مجتمعاتهم التقليدية ، وكانوا أدلة قمع في يد الطبقة الحاكمة (فكانوا جامعي الضرائب وكانوا وكلاءهم الماليين والتجاريين) . ووجود اليهود غير اليهود الملحوظ في الأحزاب الشيوعية في شرق أوروبا ، خصوصاً في النظم السوفياتية ، جعل الناس يدركون مرة أخرى أنهم جماعة وظيفية يهودية جديدة تلعب مرة أخرى دور العميل لحساب القوة الشيوعية الروسية أو المحلية التي تقوم بابتزازهم . ورغم أن هؤلاء المفكرين والمواطنين الثوريين من اليهود غير اليهود لم يميزوا بين اليهود وغير اليهود ، وكانوا أدلة أمينة في يد نظمهم الحاكمة في عملية القمع ، إلا أن العقل الشعبي لا يميل إلى التمييز بين الظلال المختلفة بل يميل إلى إدراك الواقع من خلال نماذج مختزلة له ،

خصوصاً وأن هناك تراثاً تاريخياً يدعم هذا النموذج . ولذلك ، فهناك مفارقة تستحق التأمل وهي أنه رغم اختفاء اليهود من هذه البلاد ، إلا أن شعوبها لا تزال تمارس عداءً حقيقياً لليهود .

ويمكن أن نوسع نطاق مُصطلح «يهودي غير يهودي» لتشير إلى أي مواطن من أصل يهودي تأكل انتماًه اليهودي (سواء من الناحية الإثنية أو الدينية) أو اختفى تماماً ، فهو إنسان مندمج تماماً في محيطه يُقبل على الزواج المختلط ولا يعيش في جيتو أو في أي قسم من أقسام المدينة مقصورة عليه ، كما لا يتسم بأي تميُّز وظيفي أو مهني أو ثقافي فهو من اليهود الجدد أصحاب الهوية اليهودية الجديدة ، ورغم كل هذا يُصنف على أنه «يهودي» إما من قبل ذاته أو من قبل الآخرين ، ومن ثم تصبح يهوديته إما شيئاً مفروضاً عليه من الخارج أو ادعاء ليس له ما يسانده لا في سلوكه ولا رؤيته .

١ - وإذا كان «اليهودي غير اليهودي» قد صُنف يهودياً رغم أنفه (وهذا ما كان يحدث في العالم الغربي حتى الحرب العالمية الثانية) ، فهو عادةً لا يكرث بجوانب سلوكه أو شخصيته التي يسميها الآخرون «يهودية»، بل ويحاول قدر استطاعته أن يبيّن أنها هامشية ويحس بالاستياء إن أصر الآخر على مركبة انتماهه اليهودي .

٢ - يمكن أن نُصنف اليهود الخفيون (بالإنجليزية : *Invisible Jews*) ضمن هؤلاء . ففي أثناء الحرب العالمية الثانية آثر الكثير من اليهود أن يخفوا هويتهم خوفاً من الاضطهاد النازي كما أن الفاتيكان أعطى الآلاف شهادات تعميد لتسهيل لهم عملية الهجرة أو التخفي . وفي الاتحاد السوفيتي كان من حق المواطن اليهودي أن يسجل نفسه روسياً أو أوكرانياً إن شاء ، أو يهودياً إن فضل ذلك . وقد آثر مئات الآلاف تسجيل أنفسهم روساً ، ومن أشهر هؤلاء مادلين أولبرايت ، وزيرة الخارجية الأمريكية ، التي اكتشف أمرها؛ وكذلك روبرت ماكسويل ، الناشر الإنجليزي .

٣ - ولا شك في أن اليهودي الكاره لنفسه هو أيضاً يهودي غير يهودي .

٤ - بل وعلى المستوى العميق ، يمكن القول بأن كل الصهاينة هم «يهود غير يهود» ، فالمضمون اليهودي لحياة معظم صهاينة الغرب يكاد يكون منعدماً ،

وهم يهود كارهون ليهوديتهم ويودون إلغاء الوجود اليهودي في العالم ليحلوا محله نمطًا إنسانياً جديداً (طبعياً) لا يتسم بأي شذوذ أو طفيلية ، وهو ما يُسمى الإنسان العربي الجديد .

٥ - بلغ الاختلاط درجة كبيرة حتى أنه ظهرت في الاحصاءات الخاصة بالجماعات اليهودية في العالم مقوله جديدة كل الجده وهى «يهودي بشكل ما » (بالإنجليزية : Jewish in some way) وهي مقوله كوميدية لاتختلف عن تعريف سارتر لليهودي بأنه « هو من يشعر في قرارة نفسه بأنه كذلك » .

٦ - أما « اليهودي غير اليهودي » الذي يدعى اليهودية ويتبااهي بها (وهذا هو النمط السائد بعد وعد بلفور وال الحرب العالمية الثانية) ، فهو على العكس من ذلك ، حيث يتبااهي بانتتمائه اليهودي مع أن حياته وسلوكيه وهويته تكون خالية تماماً من أي مضمون يهودي ديني أو إثنبي . وهو يسعى دائماً إلى إبراز جوانب شخصيته التي يتصور أنها يهودية .

ادعاء اليهودية

«ادعاء اليهودية» هو أن يدّعي شخص غير يهودي وليس له أية جذور يهودية على الإطلاق ، أنه يهودي . والمصطلح نفسه ينطبق على يهودي مندمج تماماً (يهودي غير يهودي) نسي يهوديته ، ولكنه تحت ظروف معينة يدّعي أنه يهودي . وهذه الظاهرة ظاهرة حديثة تماماً ، فعبر التاريخ كان «التهود» يعني الانضمام لأقلية لها طقوسها وشعائرها ووظائفها التي تعزلها عن المجتمع ، والتي لها وضع مختلف عن وضع الأغلبية ، ولذا لم يكن هناك أي مبرر لادعاء اليهودية .

وقد ظل الوضع كذلك إلى أن ظهرت الحركة الصهيونية وأقيمت دولة إسرائيل التي فتحت أبوابها للمهاجرين (بخاصة من الدول الغربية) وقدّمت لهم هي والحركة الصهيونية تسهيلات مادية وعينية مختلفة ومنحاً مالية مباشرة . وقد شجع هذا بعض العناصر اليهودية من فقدوا علاقاتهم باليهودية على إعادة اكتشاف هذه العلاقة حتى يمكنهم عن طريقها تحقيق المزايا المادية . ولكن الظاهرة ظلت هامشية إلى حدٍ كبير .

ومع هجرة اليهود السوفيات في بداية التسعينيات (والتي تزامنت مع تأكُّل الاتحاد السوفيتي ثم سقوطه) ، تفاقمت الظاهرة حتى أن كثيراً من «اليهود المتخفين» ، أي المواطنين السوفيات من أصل يهودي ، الذين سجلوا أنفسهم على أنهم غير يهود (وهو أمر كان يسمح به القانون السوفيتي) ، بدأوا يؤكّدون هويتهم اليهودية المزعومة ، وانضمت لهم بأعداد متزايدة عناصر غير يهودية على الإطلاق (من بينها عناصر مسيحية بل ومسلمة) . ويُقال إن ما بين نصف أو ثلث المهاجرين اليهود السوفيات في التسعينيات غير يهود (مدعو اليهودية أو زوجات وأزواج غير يهود) .

ولا يقتصر الأمر على الاتحاد السوفيتي (سابقاً) ، فمن المعروف أن عدد اليهود

في مدينة مكسيكوسبيتي كان يبلغ حوالي عشرة آلاف ثم قفز إلى ٣٥ ألفاً في عام واحد بعد أن بدأت بعض المنظمات اليهودية الأمريكية تقديم العون للجامعة اليهودية في المكسيك .

وقد تكررت الظاهرة مرة أخرى في إثيوبيا ، فال فلاشا ليسوا يهوداً بالمعنى الحاخامي ، ومع هذا سمع لهم بالهجرة إلى إسرائيل . ثم بدأ الفلاشا موراه بالطالبة بالهجرة باعتبارهم يهوداً ، مع أنهم فلاشا تنصروا منذ قرنين من الزمان .

ويرى الإسرائيлиون أن العبرانيين السود أو اليهود السود (من الولايات المتحدة) من مدّعى اليهودية . وفي الأعوام الأخيرة ، بدأت الظاهرة تأخذ شكلاً حاداً إذ بدأ أفراد بعض القبائل في آسيا وأفريقيا يعلنون أنهم «يهود» (من نسل القبائل العبرانية العشر المفقودة) ومن ثم يحق لهم الهجرة إلى إسرائيل بمقتضى قانون العودة . وبعض هذه القبائل تُوجّد في شعائرها بالفعل عناصر عبرية أو يهودية ، ولكنها لا تجعل عقيدتهم عقيدة يهودية (بأقصى المعايير تسامحاً بل ونسبة) ومن ثم لا يمكن تصنيف أعضائها على أنهم يهود . ولكن معظم أعضاء الجماعات اليهودية لا يعترفون بمعاييرية اليهودية الحاخامية . وقد عرفت المحكمة الإسرائيلية العليا اليهودي بأنه من يرى نفسه كذلك . وهذا يخلق ورطة حقيقية للمُستوطن الصهيوني . ولذلك ، فقد تعالت الأصوات ولأول مرة في تاريخ الصهيونية مطالبة بإلغاء قانون العودة .

أَعْصَاءُ الْجَمَاعَاتِ الْيَهُودِيَّةِ وَقَضْيَةُ الْهُوَىِ الْقَوْمِيَّةِ

ما يُقال له «المأساة اليهودية» هو ، في جانب أساسي منه ، مشكلة «الهوية اليهودية» في التشكيل الحضاري الغربي ، التي تعود بجذورها إلى العصور الوسطى في الغرب إذ أن أعضاء الجماعات اليهودية لعبوا هناك دور الجماعة الوظيفية الوسيطة كتجار ومرابين ، الأمر الذي أدى إلى عزلهم عن بقية أعضاء المجتمع . وما دعم هذه العزلة ، علاقات الجماعة الوظيفية اليهودية (في كل بلد أو مدينة أوربية) مع الجماعات الوظيفية اليهودية الأخرى في أنحاء العالم الغربي والإسلامي ، وهي علاقات كانت تشكل ما يشبه النظام المصرفي والائتماني العالمي . وقد خلقت هذه العلاقات وهم الوحيدة ، بحيث كان المراقب الخارجي يتصور أن اليهود يشكلون وحدة قومية بسبب علاقاتهم التجارية والمالية ، وهم في الواقع جماعات غير متجانسة تنتمي إلى تشكيلات حضارية مختلفة ويربطها رباط الوظيفة الاقتصادية والاجتماعية (وهذا ما سماه إبراهام ليون «الطبقة / الأمة») . ومن أسباب تدعيم العزلة ، أيضاً ، التصور المسيحي لهم باعتبارهم قتلة المسيح والشعب الشاهد (على عظمية الكنيسة وصدقها) . وقد تبدى كل هذا في شكل استيطان وتوطين اليهود في الجيتو . وهذه بالطبع صورة نموذجية مثالية تختلف كثيراً عن الواقع الحي الذي كان أكثر تماوجاً وتركيباً .

وقد ظلل هذا الوضع قائماً في أوروبا ، بصور مختلفة ، حتى القرن السابع عشر ، حين بدأت تظهر الطبقات البورجوازية المحلية (المسيحية) ثم الدول المطلقة ووريثتها الدولة القومية الحديثة التي بدأت تضطلع بكل وظائف الجماعات الوظيفية ، وهو ما أدى إلى الاستغناء عنها ، وانهيار الهيكل القانوني والسياسي الذي كان يجسد عملية الفصل بين الطبقات من ناحية ، والجماعات الدينية والإثنية التي كانت تدار على أساسها الدولة في المجتمع التقليدي من الناحية

الأخرى . وقد طالبت الدولة القومية الحديثة أعضاء الجماعات اليهودية وكل الأقليات بالتخليص من خصوصيتهم الدينية أو الإثنية أو العرقية ، وبأن يقوموا بإعادة تعريف هويتهم بشكل يتفق مع ما تتطلبه من ولاء قومي كامل من كل المواطنين ، وحاولت تخليصهم من تميزهم الوظيفي والاقتصادي . وهذه عملية يمكن أن نطلق عليها مُصطلح « تحديث الهوية » أو « علمنة الهوية ». وتتم هذه العملية وتكتمل حينما يتحول أعضاء الجماعة اليهودية من جماعة وظيفية وسيطة إلى أعضاء في الطبقة الوسطى ، أو أيّ من الطبقات الأخرى في المجتمع .

ومن منظور التحدث ، يمكننا أن نقول إن هويتين يهوديتين أساسيتين ظهرتا في التشكيل الحضاري الغربي في القرن التاسع عشر ، أولاهما ، الهوية اليهودية في مجتمعات غرب أوروبا ووسطها ، في إنجلترا وفرنسا وإيطاليا ، وفي ألمانيا بدرجة أقل ، ثم في الولايات المتحدة ، وهي مجتمعات تتسم بأنها لم تكن تضم أعداداً كبيرة من أعضاء الجماعات وبأن عملية التحدث نجحت فيها إلى حدٍ كبير ، وتم إعتاق أعضاء الجماعات وإعطاؤهم حقوقهم السياسية والمدنية ، كما تم دمجهم في المجتمع اقتصادياً وثقافياً ، حيث أصبح الاندماج هو المثل الأعلى . وقد نشأت ، في هذا الإطار الاندماجي ، اليهودية الإصلاحية التي فصلت الهوية الدينية عن الهوية القومية أو الإثنية تماماً ، وعرفت الهوية اليهودية تعريفاً دينياً خالصاً . وقد أُنجزت اليهودية الأرثوذك司ية أمراً مماثلاً بأن جعلت هوية اليهودي مسألة دينية أساساً ، وجعلت تحقيق الجانب القومي من العقيدة اليهودية مرتبطاً بالإرادة الإلهية ، وهو كما تقدم الحل التقليدي الذي طرحته اليهودية الخامامية للإشكالية المشيحانية . وقد اندرج يهود هذه المجتمعات اندماجاً كاملاً ، وكانوا يتحدون الفرنسية في فرنسا والإنجليزية في كلٍ من إنجلترا والولايات المتحدة . والهوية اليهودية في ألمانيا ، وفي كثير من بلاد وسط أوروبا ، تنتهي إلى النمط نفسه رغم اختلاف الظروف ، ولا يمكن فهم هوية الجماعات اليهودية في هذه البلاد إلا في السياق الحضاري لكلٍ منها . وبالتالي تراجع البُعد الديني مع تصاعد معدلات العلمنة فأعيد تعريف الهوية اليهودية على أساس إثنبي علماني ولكن البُعد اليهودي (الإثنبي والديني) ظل هامشياً للغاية . ولذلك ، تأخذ التطلعات القومية اليهودية ليهود الغرب ، إذا وُجدت ، شكل حنين ديني للعودة إلى صهيون (الروحية) إن كان اليهود من المتدينين . أما إذا كانوا من العلمانيين ،

فإنها تأخذ شكل حماس عاطفي لهويتهم الإثنية ، لا يترجم نفسه أبداً إلى هجرة استيطانية وإنما يأخذ شكل صهيونية توطينية ، أي ينصرف إلى توطين اليهود الآخرين حتى يحموا مواقعهم الطبقية ومكانتهم الاجتماعية . وهذه هي هوية ما بعد الانعتاق أو الهوية اليهودية بعد تحديتها أو الهوية اليهودية الجديدة .

أما الهوية اليهودية الثانية ، فقد نشأت في مجتمعات شرق أوروبا بين يهود اليديشية ، خصوصاً في بولندا وروسيا . وهذه مجتمعات دخلت العصر الحديث متأخرة وسادت فيها (في القرن التاسع عشر) ظروف تشبه الظروف السائدة في العالم الثالث في الوقت الحاضر ، إذ تعذر فيها التحديث لسنوات طويلة ابتداءً من عام ١٨٨٢ ، كما أنها كانت تضم أعداداً ضخمة من أعضاء الجماعات اليهودية ، بل معظم يهود العالم . وكان أعضاء الجماعات اليهودية في هذه المجتمعات يتهدّون اليديشية في محيط سلافي ، ويؤمنون باليهودية في محيط مسيحي أرثوذكسي محافظ . كما أن روسيا كانت تأخذ شكل إمبراطورية مكونة من قوميات لكل منها لغتها وثقافتها . ولذا ، لم يكن اليهود ، كتّجمع له ثقافته ولغته ، يمثل استثناءً كبيراً . وقد بذلت محاولات ، في نهاية القرن التاسع عشر ، لصبّغ اليهود ، وغيرهم من الجماعات ، بالصبّاغة الروسية أو البولندية . ولكن ، مع تعزّز التحديث ، توقفت هذه المحاولات .

و داخل هذا الإطار ، وفي هذه المرحلة (أواخر القرن التاسع عشر) طرحت في شرق أوروبا عدة تصورات للهوية اليهودية تستند إلى تجربة أعضاء الجماعات اليهودية في تلك المنطقة . فكان هناك التصور الاندماجي الذي يشبه تصوّر يهود الغرب للهوية . ولكن ، كان هناك تصوران آخران هما اللذان قدّر لهما الشيوع في صفوف يهود شرق أوروبا .

أ) قومية الدياسبورا :

حاول دعاة قومية الدياسبورا (سيمون دبنوف ، وحزب البوند) ، المتأثرون بتجربة يهود شرق أوروبا وتراثهم ، أن يعرّفوا الهوية اليهودية تعريفاً ثقافياً أو تراثياً وحسب ، بإسقاط الجانب الديني تماماً ، إذ رأوا أن الهوية اليهودية هي أساساً انتفاء إلى التراث الثقافي اليهودي . كما لم يربطوا هذا التراث بفلسطين أو بأي مركز محدد آخر ، فهم يرون أن مركز اليهودية الثقافي ينتقل من بلد إلى آخر . كما أنهم يرفضون أي إطار عالمي لليهودية ، ولا يعترفون بوجود ثقافة يهودية

عالمية ، ويرون أن كل جماعة يهودية مرتبطة بحركات تاريخية مختلفة ولها هوية مختلفة وتراث يهودي مختلف ، ولذا فإن كل جماعة تبحث عن حلول لمسائلها داخل حدود تاريخها الخاص والمعين وخارج أية رؤية تاريخية عالمية . ولهذا ، يمكن القول بأنهم لا يتحدثون في واقع الأمر عن «قومية الدياسبورا» (كما يتوهمنون) ، وإنما عن هوية يهودية شرق أوربية (يديشية) متفاعلة مع التشكيل الحضاري الذي تُوجَد فيه . وانطلاقاً من تلك الرؤية ، يرى دعاة قومية الدياسبورا أن اللغة التي تُعبِّر عن هذه الهوية اليهودية ليست العبرية (اللغة الدينية العالمية لليهود) ، وإنما الidiashiyah . وحينما استأنفت الثورة البلشفية عملية التحديث في روسيا ، ناصبت حزب الボوند العداء لأسباب سياسية في البداية ، كما رفضت تصوُّره للهوية اليهودية المحدودة الشرق أوربية ، ولكنها عادت في الثلاثينيات واعترفت بها وبلغتها المستقلة وبشخصيتها الثقافية المستقلة التي يمكن أن تتحقق داخل الإطار السوفيتي . وانطلاقاً من ذلك ، حددت مقاطعة بirovijan ، كمقاطعة مستقلة ، لغتها الرسمية الidiashiyah . وكان بإمكان هذه المقاطعة ، من الناحية النظرية ، أن تتحول إلى جمهورية مستقلة (داخل اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية) لو هاجر إليها عدد كافٍ من اليهود . وقد ظلت الهوية الidiashiyah مزدهرة في الفجوة الزمنية بين تَعْثُر التحديث واستئنافه في الاتحاد السوفيتي وبين هجرة يهود شرق أوروبا إلى الولايات المتحدة واندماجهم فيها ، وهي تقع على وجه التقريب بين بداية القرن الحالي وأواخر الأربعينيات . ولكن مع تصاعد معدلات التحديث والعلمنة بدأت الهوية الidiashiyah في التآكل السريع ، وساهم النازيون في القضاء على البقية الباقيَة من هذه الهوية ، ومع السبعينيات لم يَعُد للهوية الidiashiyah من أثر في العالم .

ب) الحل الصهيوني :

حاول الصهاينة العلمانيون ، أو اللادينيون ، إعادة تعريف الهوية اليهودية تعريفاً يؤكِّد الجانب القومي ولا يُعنِي بالجانب الديني إلا بمقدار تعبيره عما يُسمى «القومية اليهودية» . وقد أسس هؤلاء مجتمعهم الصهيوني استناداً إلى هذه الرؤية . ومع هذا ، ظهرت داخل الحركة الصهيونية جماعات من الصهاينة المتدينين الذين يرون أن الدين اليهودي والقومية اليهودية هما شيء واحد ، وأن الهوية اليهودية هوَيَّة قومية دينية ، الأمر الذي أدى إلى تصعيد التفجيرات داخل الكيان الصهيوني .

التعريف الصهيونية للهوية اليهودية

تُعدُّ الصهيونية ، في أحد جوانبها ، محاولة لإعادة تعريف اليهود تعريفاً يتفق مع وضعهم الجديد في الغرب بعد ظهور الدولة القومية العلمانية وعصر الإعتاق وسقوط الجيتو . وهي ، من هذا المنظور ، واحدة من كثيرة من المحاولات اليهودية الأخرى ، مثل : اليهودية الإصلاحية ، واليهودية الأرثوذكسيّة ، وقومية الدياسبورة . وينطلق الصهاينة اللادينيون من تعريف للهوية هو في جوهره علمنة لكثير من الأفكار القومية الكامنة في التراث الديني اليهودي . فهم يرون أن ثمة هوية قومية يهودية واحدة متميزة متجلسة تفرق بين اليهود وسواهم من أقوام وشعوب في كل زمان ومكان ، وأن ثمة مصدران لها . أما المصدر الأول ، فهو الضغوط من الخارج ، أي أن مصدر الهوية اليهودية ليس من داخل اليهودية ذاتها وإنما هو مجرد رد فعل لهجمات أعداء اليهود عليهم ، باعتبار أن اليهود جسم قومي غريب في أوطان الآخرين . ومن جهة أخرى يرى بعض الصهاينة المتأثرين بالخطاب الاشتراكي أن مصدر الهوية اليهودية هو الوضع الطبيعي المتميز لليهود في المجتمع الغربي كجماعة وظيفية وسيطة . واليهودي ، بحسب الرؤية السابقة ، يكتسب هويته من الغير ، وهو تعريف أخذ به معظم الصهاينة الأوائل مثل : تيودور هرتزل ، وماكس نوردو ، وأهaron جوردون ، وغيرهم . ويبدو أن هذا كان الاتجاه السائد في أوروبا . فعلى سبيل المثال ، صرخ كارل ليوجر (المرشح المعادي لليهود لمنصب عمدة فيينا) بأنه هو الذي يحدد من هو اليهودي .

لكن معظم الاتجاهات الصهيونية لا تأخذ بهذا الرأي الآن ، وتطرح تصوراً للهوية اليهودية على اعتبار أنها شيء نابع من مصدر آخر هو حركيات ما يُسمى «التاريخ اليهودي» المرتبط بفلسطين (إرتس يسرائيل في الخطاب الديني) . وهذا المجال الزماني المكاني هو المجال الوحيد الذي تستطيع فيه هذه الهوية أن تُعبر عن

نفسها تعبيراً كاملاً ، مثلما حدث تحت حكم المملكة العبرانية المتحدة (أو الكومونولث الأول) وحكم الدولة الحشمونية (أو الكومونولث الثاني) ، إلى أن تم هدم الهيكل .

ويرى الصهاينة أن هويات يهود المنفى المندمجين ليست إلا انحرافاً عن مسار هذا التاريخ . ولذا ، فهم ينطلقون في تعريفهم الهوية اليهودية « الحق » من انتقاد جذري لهذه الهويات ، مستخدمين كثيراً من أطروحتات أدبيات معاداة اليهود . فاليهود المندمجون شخصيات مريضة مصابة بالازدواج والانقسام ، مشوهة وهامشية ، وهم يحاولون إخفاء هويتهم اليهودية الحقة المتأصلة ويبذلون قصارى جهدهم في إظهار هويتهم غير اليهودية المكتسبة والإعلان عنها بشكل مُقزّز ، الأمر الذي يجعلهم يشبهون القردة التي تقلد ما لا تعي . وستلُغَى كل هذه الأوضاع الشاذة حالما يؤسس الصهاينة وطنًا قومياً تتمكن الشخصية اليهودية من خلاله التعبير عن نفسها بشكل سوي تعبيراً كاملاً ، بحيث يصبح اليهود شعباً مثل كل الشعوب . وسيتحقق اليهود من خلال الدولة ، وبوصفهم شعباً ، ما فشلوا في تحقيقه بوصفهم أعضاء في مجتمعاتهم . وهذا ما يُسمى في المصطلح الصهيوني « تطبيع الشخصية اليهودية » . وبحسب الرؤية الصهيونية ، فقد بدأت هذه العملية بالفعل في عام ١٩٤٨ - عام إعلان الدولة الصهيونية (الكومونولث الثالث) . لكن تطبيع اليهود لا يعني تصفية الهوية اليهودية وإنما يعني منحهم هوية يهودية جديدة سوية ؛ هوية اليهودي الحالص (اليهودي مائة بالمائة على حد قول بن جوريون) . وقد طرحت تصورات عدّة لمصدر يهودية هذا اليهودي الحالص ولسماته وجوهره :

١ - التعريف العرقي :

يُصرُّ المدافعون عن هذا التعريف على رؤية اليهود كعنصر عرقي متميّز ، ولذا فهم يتحدثون عن « الجنس اليهودي » وعن اليهود باعتبارهم « جنساً متميّزاً » . وقد عرَّفَ كثير من الزعماء الصهاينة اليهودية بأنها « مسألة تتعلق بالدم » . وانطلاقاً من ذلك ، يرى الصهاينة أن التزاوج مع الأجانب سيؤدي إلى تدهور العرق اليهودي ، وأنه لابد من تأسيس وطن قومي (لهذا الجنس الفريد) ودولة مستقلة يُعبر فيها عن عقريته ويمارس فيها إرادته . ولكن تم التخلّي عن هذا التعريف تماماً

في هذه الأيام ، إذ أن النظريات العرقية لم تُعد مقبولة في الغرب ، خصوصاً بعد أن نجح هتلر في تدمير أعداد كبيرة من اليهود باسم هذه النظريات والاعتذارات .

٢ - التعريف الإثنى أو التراثي :

يرى فريق من الصهاينة أن اليهود جماعة متربطة ذات تاريخ مشترك منفصل ومحدد ، وأن ثمة روابط تراثية (وليست عرقية) فريدة بقيت على مدى قرابة أربعة آلاف سنة بين اليهود ، وأن ثمة تماثلاً في أوضاع اليهود الإثنية والتاريخية ، وال مختلفة من بلد إلى بلد . وهم يرون أن ما حفظ وحدة اليهود هو الدين اليهودي ، لا من حيث هو عقيدة وإنما من حيث هو إطار رمزي وبعد أساسي من أبعاد التراث اليهودي . فالدين هو الوعاء الوحيد الذي ضمن الاستمرار والتتجانس الإثنى . وبناءً عليه ، تكون الدولة الصهيونية هي الإطار الأمثل لكي تُعبر هذه الإثنية عن نفسها .

٣ - التعريف الديني :

لم يقبل الصهاينة الدينيون التعاريف اللادينية السابقة ، وحاولوا استرجاع قداسة الهوية اليهودية . وهكذا ، فهم يرون أن هوية اليهود القومية مصدرها الدين ، إذ لا يمكن التفرقة بين القومية اليهودية والعقيدة اليهودية . فاليهود أمة مقدّسة وكيان منعزل غريب مقدس يكتسب هويته من علاقته الخاصة مع رب ، ومن رسالته الخالدة بين الشعوب الأخرى . والتعريف الديني لا يستبعد العنصر الإثنى ، فالهوية اليهودية (بحسب تعريف الشريعة كما تقدم) ذات أساس ديني إثنى . كما أن الهوية اليهودية (كما يُعرفها الصهاينة المتدينون) لا تحمل معها أية أعباء أخلاقية ، بل تمنح اليهود حقوقهم القومية كاملة دون أية مسؤولية تجاه الآخرين . ولذا ، لا يوجد أي تناقض جوهري بين التعريف الإثنى اللاديني والتعريف الإثنى الديني . ومع هذا ، يظل مصدر الشرعية في كلا التعريفين مختلفاً ، فمصدر الشرعية والقداسة في القول الصهيوني العلماني هو الشعب اليهودي ذاته . أما في القول الديني ، فإن مصدر الشرعية هو الحلول الإلهي في هذا الشعب . وحينما يتحدث المتدينون عن اليهودي ، فإنهم يستخدمون ، كما هو متوقع ، معياراً أرثوذكسيّاً .

والتعريف السائد الآن في المستوطن الصهيوني هو التعريف الصهيوني اللاديني الإثني بالدرجة الأولى ، ويليه التعريف الصهيوني الديني الإثنى . ومن الملاحظ أن التعريف الديني أخذ في الشیوی وانتشار منذ نهاية السنتينيات . كما أن الصراع بين التيارين يفجر قضية الهوية التي يُشار إليها بسؤال «من هو اليهودي»؟ .

ومن الضروري أن نتبّه إلى أن مقوله الهوية اليهودية في السياق الصهيوني الاستيطاني ليست مجرد مقوله نفسية أو فلسفية أو دينية ، فهي مقوله قانونية تحمل معنوناً سياسياً واقتصادياً محدداً . فلليهودي ، في الدولة الصهيونية ، مزايا وحقوق معينة لا يتمتع بها غير اليهودي . كما أن ثمة وكالات ومؤسسات صهيونية عديدة يمولها يهود الخارج وتُعدُّ الترجمة الفعلية والمؤسسية لمقوله اليهودي هذه ، فهي مؤسسات تخدم المساعدة لليهود وحسب ، وتحجبها عن غير اليهود . وأهم هذه المؤسسات الصندوق القومي اليهودي الذي يمتلك معظم أراضي فلسطين المحتلة باسم الشعب اليهودي ، والذي تحرّم قوانينه بيع هذه الأرضي أو تأجيرها لغير اليهود ، أو حتى استخدامهم للعمل فيها . وبذلك يمكننا أن نقول إن التعريف الصهيوني للهوية اليهودية هو الأساس النظري للممارسات الصهيونية العنصرية ضد العرب ، بل إن عمليات ضم الأرضي تتم باسم هذه الهوية . وبالفعل ، حذر الحاخام آرون سولوفاشيك (زعيم اليهودية الأرثوذكسيّة في الولايات المتحدة) من أن قبول التعريف العلماني لليهودي سيقوي عناصر الضغط على إسرائيل لأن تتنازل عن الأرضي المحتلة وعن أجزاء من القدس وحائط المبكى ، حيث إنها ضمتها باسم الهوية اليهودية وباسم الحقوق التي يتمتع بها اليهود .

الهويات اليهودية والتناقض بين الرواية الصهيونية والممارسة الإسرائيلية

كانت كل جماعة يهودية تمارس تجربتها التاريخية والدينية بمعزل عن الجماعات الأخرى ، وكانت كل منها تطور هويتها الدينية والإثنية من خلال التشكيل الحضاري الذي توجّد فيه وتعامل معه وتسمّي نفسها «يهودية» ، وذلك دون البحث عن خاصية جوهرية ما تربط كل أعضاء الجماعات معاً ، ودون الحاجة إلى تعريف دقيق وعامي وشامل لليهودي .

وكان الصهاينة اللادينيون ، حتى عام ١٩٤٨ ، يتحدثون بحرية شديدة عن «الشعب اليهودي الواحد» (بالألمانية : أين فولك Ein Volk) ، وبالتالي عن «الهوية اليهودية الواحدة» و«القومية اليهودية» . كما كان الصهاينة المتدينون قانعين بدورهم الثاني في الحركة الصهيونية ، ولكنهم كانوا يتحينون الفرصة ليفرضوا تعريفهم القومي الديني الأرثوذكسي . وقد تم إعلان قيام الدولة الصهيونية لا باعتبارها دولة مستقلة وحسب ، وإنما باعتبارها دولة يهودية ليست مقصورة على مواطنها ، فهي أيضاً دولة الشعب اليهودي بأسره داخل فلسطين وخارجها . وترى هذه الدولة أن مصدر شرعية وجودها هو يهوتيها ، ومن هنا محورية تعريف الهوية اليهودية ، ومن هنا أيضاً حتمية ظهور التناقضات الكامنة .

وقد أصدرت الدولة الصهيونية عدة قوانين تعطي حقوقاً لصاحب الهوية اليهودية . وكان أول هذه القوانين قانون العودة (عام ١٩٥٠) الذي يعطي لأي يهودي الحق ، أينما كان ، في الهجرة إلى إسرائيل (فلسطين المحتلة) ، والاستيطان فيها . ثم صدر عام ١٩٥٢ قانون تكميلي هو قانون المواطن الإسرائيلي ، والذي يمنح الجنسية الإسرائيلية لكل المهاجرين اليهود . ولكن كلا القانونين لم يُعرف من هو اليهودي ، وترك القضاية معلقة . وقانون العودة ليس القانون الوحيد الذي

يتطلب تعريف اليهودي ، إذ تتم الإشارة إلى اليهودي في الدولة الصهيونية في سياقين آخرين . فقانون تسجيل المواطنين يتعرض لهذه القضية إذ تتضمن الهوية في إسرائيل البند المعتادة مثل الجنسية (إسرائيلي) ، والديانة (يهودي أو مسلم أو مسيحي) ، ولكن هناك بندًا ثالثاً خاصاً بالقومية (عربي بالنسبة للعرب المسلمين والمسيحيين ويهودي بالنسبة للإسرائيليين اليهود) . ولابد أن يتتفق البندان الخاصان بالديانة والقومية في حالة الإسرائيليين اليهود باعتبار أن الصهيونية في أحد تعاريفها للهوية تُوحد بينهما .

أما السياق الثالث الذي تتم الإشارة فيه إلى اليهودي ، فهو المحاكم الخاسمية التي تمارس السلطة المطلقة في أمور الزواج والطلاق . والتعريف الذي تأخذ به هذه المحاكم هو التعريف الديني القومي (الأرثوذكسي) وحسب ، وهو يستبعد أي تعريف آخر . ويمكننا أن نتحدث عن عدة تناقضات أساسية ، واجهها الصهاينة في محاولتهم تطبيق المثل الصهيونية ، ولكنهم فضلوا إرجاءها وعدم التعرض لها :

١ - التناقض بين الدينين واللادينيين :

التعريف الديني الأرثوذكسي لليهودي أمر معروف أقرته الشريعة اليهودية الخاسمية . أما التعريف القومي (غير الديني) ، فهو مسألة غامضة للغاية ، إذ أن من الصعب تعريف هذه الخاصية القومية الفريدة التي تميز هذا الحشد الهائل من الجماعات اليهودية التي تتمتع بهويات متعددة . ومن الصعب كذلك ، بل وربما من المستحيل ، تعريف اليهودي الملحد أو اليهودي الإثني ، أو اليهودي غير اليهودي . وفي نهاية الأمر ، تصبح المسألة مسألة إحساس داخلي غامض يمارسه اليهودي بوجود هذه الخاصية اليهودية داخله . ولذلك ، يشير بعض المعلقين إلى التعريف الديني بأنه تعريف موضوعي ، أي يستند إلى مقاييس خارجة عن الذات ويمكن الاحتکام إليها . أما التعريف العلماني ، فهو تعريف ذاتي يستند إلى حالة شعورية تتفاوت في حدتها وعمقها من شخص إلى آخر . وبالفعل ، تُعرف الأوساط العلمانية اليهودي بأنه من يشعر في قرارة نفسه بأنه يهودي ويعلن ذلك بإخلاص دون الحاجة إلى قرائن خارجية ، وهو تعريف يخلق من المشاكل أكثر مما يحلّ .

ولإيضاح هذه النقطة ، يمكن أن نشير إلى العاهرات وتجار الرقيق الأبيض والقوادين من أعضاء الجماعة اليهودية من تركزوا في الأرجنتين ، وكونوا قطاعاً اقتصادياً كبيراً وجماعة ضغط ، وأصبحت لهم مؤسساتها الخاصة من نواد ومسارح ونظام رفاه اجتماعي . وهذه مسألة مفهومة تماماً في إطار علماني مادي حيث يقوم من لهم مصالح مشتركة بتنظيم أنفسهم . ولكن المشكلة ظهرت حينما أصر هؤلاء المشغلون بهذه المهنة الشائنة على انتمائهم أو هويتهم اليهودية ، ومن ثم كانت لهم معابدهم الخاصة وحاخاماتهم الذين يفون باحتياجاتهم الروحية ، بل و كانوا يخرجون في استعراضات أو مواكب في الأعياد الدينية اليهودية ! وغني عن القول أن هذا كان يسبب حرجاً شديداً لأعضاء الجماعة اليهودية ، فظلوا يحاربون هذا الجيب الذي يُصرُّ على يهويته حتى نجحوا في القضاء عليه تماماً . وكل ما تبقى من هذا الجيب هو ملجاً للبغایا اليهوديات العجائز في بيونس آيرس .

٢ - التناقض بين السفارد والإشكناز :

يمكن القول بأن الصهيونية ، على مستوى الممارسة منذ أول أيامها وحتى عام ١٩٤٨ ، قد عرّفت اليهودي بأنه اليهودي الأبيض (الإشكنازي) . وكانت ، في هذا ، متسقة تماماً مع نفسها ، فقد كانت تُقدم نفسها باعتبار أنها تجربة تتم داخل إطار التشكيل الاستعماري الاستيطاني الغربي ، ولذا كان على الصهاينة إثبات بياض بشرة اليهودي حتى يتسلى للمستوطنين أن يشاركوا في حَمْل عباء الرجل الأبيض ، ويستفيدوا في الوقت نفسه من الأمن العسكري والدعم الاقتصادي الذي يوفره القائمون على المشروع الاستعماري ، ويحلوا محل أحد شعوب آسيا وأفريقيا . وقد بذل آرثر روبين ، أحد أهم علماء الاجتماع الصهاينة والمسئول عن الاستيطان في فلسطين لفترة طويلة قبل إنشاء الدولة ، جهداً «علمياً» فائقاً لإثبات أن اليهودي هو الإشكنازي وحده وأن الشرقيين ليسوا يهوداً . وهناك العديد من البيانات والتصريحات تُعبّر عن هذا الموقف . لكن هذا الموقف يتناقض تماماً مع موقف الصهيونية الأصلي ، فالصهيونية تكتسب شرعيتها من زعمها بأنها حركة الشعب اليهودي بأسره .

٣- التناقض بين التعريف الدينية المختلفة :

لا تنحصر المسألة في التناقض بين الدينين والعلمانيين وحسب، أو بين الأشكناز والسفاردين فقط ، وإنما تمتد لتشمل مجال الدينين ذاته . فالأرثوذكس لا يعترفون بالحاخامات الإصلاحيين ولا بالحاخامات المحافظين كيهود . ولذا ، فهم لا يعترفون بالمتهودين على أيدي مثل هؤلاء الحاخامات . وفي معرض دفاعهم عن وجهة نظرهم ، يذكر الأرثوذكس أن الشريعة ، بحسب اليهودية الحاخامية ، حددت الخطوات الالزمة للتهدود بشكل واضح تماماً كما حددت من هو اليهودي . فلكي يتهدّد إنسان ما ، يجب أن يتم ختانه إن كان ذكراً ، أما الأنثى فعليها أن تأخذ حماماً طقوسياً وهي عارية أمام ثلاثة حاخamas (وهو الأمر الذي يسبب الخرج للإناث المتهودات) . وعلى المتهود أن يتقبل نير المتسوف (الفرائض أو الأوامر والنواهي) ، أي أن يعيش حسب قانون التوراة . أما الحاخامات الإصلاحيون ، فلا يلتزمون بهذه الخطوات ، إذ يكفي عندهم أن يحضر راغب التهدود محاضرة عن التاريخ اليهودي ، أو يقرأ مقطوعة من العهد القديم . ويقر الحاخامات الإصلاحيون بأن مراسيم التهويد التي يقومون بها لا تتبع الشريعة ، ولكنهم يصرّون في الوقت نفسه على أن هذا لا يمنع كونها مقدّسة . أما المحافظون ، فيرون أنهم يتبعون الشريعة ، لكن الأرثوذكس لا يوافقونهم على ذلك .

ومن المشاكل الأخرى التي ظهرت داخل المعسكر الديني مشكلة قيام اليهودية الإصلاحية بإعادة تعريف اليهودي بحيث أصبح من يولد لأب يهودي أو أم يهودية ، وهو ما لا تتوافق عليه اليهودية الأرثوذكسية واليهودية المحافظة .

٤ - تناقضات أخرى :

هناك تناقضات يصعب تصنيفها لأنها ذات طابع ديني إثنين ، وقد نشأت هذه التناقضات أساساً بين المؤسسة الدينية وبعض الجماعات اليهودية الصغيرة بشأن انتمائهم الديني والإثنين وما إذا كان هذا الانتماء خالصاً أم أنه هجين .

وكانت أولى المشاكل التي واجهها الصهاينة التناقض بين السفاردي والإشكناز ، وهو انقسام سبق إعلان الدولة . وقد لجأت السلطات البريطانية لطرق عملية غير عقائدية لحله ، إذ سمحت بوجود حاخاميتين : واحدة سفاردية ، والأخرى

إِشكنازية ، بكل ما ينطوي عليه ذلك من انقسام أساسى وجذري . والانقسام بين الإِشكناز والسفارد انقسام عميق ذو طابع ديني ، ولكنه ذو أبعاد طبقية وإثنية . وهو من العمق بحيث يتبدئ من خلال تنوع الأحزاب الإِسرائيلية وبنيتها وأنماط التصويت في الانتخابات التي تجري في المستوطن الصهيوني . ومع هجرة اليهود الشرقيين من العالم العربي والعالم الإِسلامي وببلاد الشرق الأخرى ، مثل الهند ، زاد العنصر الشرقي على حساب العنصر الغربي ، وأصبح الشرقيون أغلبية في المجتمع ، الأمر الذي اضطر المؤسسة الحاكمة إلى إخفاء تعريف الهوية الذي يعادل بين الإِشكنازى واليهودى ، وكفت المؤسسة عن إطلاق التصريحات العنصرية ضد اليهود السفارد ويهدى البلاد الإِسلامية . لكن الرؤية الكامنة التي توجّه الدولة الصهيونية لا تزال ، أولاً وأخيراً إِشكنازية ، وهي تحاول القضاء على الأشكال الحضارية الشرقية التي أحضرها اليهود الشرقيون معهم ، ولا تزال النخبة الحاكمة في إِسرائيل غربية بوجه عام وإِشكنازية بالدرجة الأولى .

ومن الأمثلة الأخرى التي انفجرت فيها قضية الهوية من منظور ديني ، قضية يهود الهند المعروفون باسمبني إِسرائيل . فالحاخاميتان ، السفاردية والإِشكنازية ، لم تعرفا بهم كيهود ، لأنهم يمارسون الزواج المختلط ولا يعرفون التلمود . وقد استمرت مشكلتهم قائمة إلى أن اضطرت المؤسسة الدينية إلى الرضوخ لضغط المؤسسة السياسية . ولم تعرف الحاخاميتان أيضاً بيهود الفلاشا ، ولم تشجع هجرتهم طيلة الأعوام الثلاثين الماضية لعدة أسباب ، من بينها أنهم هم أيضاً لا يعرفون التلمود ، ولكن حينما طلب إليهم التهود ، رفضت أعداد كبيرة منهم ذلك . فاقتربت الحاخاميتان صيغة مخففة للتهديد تتضمن عملية تختين رمزية (حين قبل بعضهم ذلك سارع بمثيل الحاخامية السفاردية بختينهم قبل أن يقوم مثل الحاخامية الإِشكنازية بهذه العملية . ولكن حينما حضر الأخير قام هو الآخر بالعملية نفسها ، أي أنهم تم تهويدهم وختينهم مرتين خلال عدة أيام) . وتناثر قضية اليهود القرائين واليهود السامريين من آونة إلى أخرى ، خصوصاً حينما يتم زواج مُختلط بين أحد أعضاء إحدى هاتين الجماعتين وفرد ينتبه إلى اليهودية الحاخامية . ولم تضطر الدولة الصهيونية ولا المؤسسة الدينية إلى الدخول في صراع عميق مع أيٍّ من هذه الجماعات بسبب صغر أحجامها وقلة نفوذها داخل وخارج إِسرائيل . ولم تأخذ المؤسسة السياسية موقفاً حاسماً في هذه القضية ، بل تركت الأمر للمؤسسة الدينية تصرفه بطريقتها .

ومع منتصف الخمسينيات ، ظهرت التناقضات بين الدينين واللادينيين ، وكذلك بين الأرثوذكس من ناحية وبقية الفرق الدينية من ناحية أخرى ، وذلك حينما بدأت المؤسسة الأرثوذك司ية في الخارج تضغط على المؤسسة الدينية في إسرائيل حتى تبني موقفاً أكثر تشديداً من مسألة تعريف اليهودي . وقد تزامن ذلك مع موجة من الهجرة من شرق أوروبا ضمت عدداً كبيراً من الزيجات المختلطة . وفي عام ١٩٥٧ ، قرر رئيس قسم تسجيل الهوية في وزارة الداخلية (وهو عضو في الحزب الديني القومي) ألا يقبل وصف المهاجر لنفسه بأنه يهودي باعتباره المقياس الوحيد معتبراً أنه معيار علماني ذاتي ، وأصدر أمراً إدارياً للموظفين في إدارته بذلك . ورداً على ذلك ، أصدر وزير الداخلية (وكان علمانياً من حزب اتحاد العمال « أحدوت هاعفود ») قراراً في مارس ١٩٥٨ يؤكد فيه التوجيهات القديمة التي تقبل المعيار الذاتي . فانسحب الحزب الديني القومي من الائتلاف الحاكم احتجاجاً . فقام بن جوريون بالكتابة إلى خمسين شخصية يهودية (دينية وفكرية) في أنحاء العالم يطلب إليهم الفتوى في هذا الأمر (وكان يشار إليهم بعد ذلك بوصفهم « حكماء إسرائيل ») . وجاءت الإجابات مشتملة على سائر التناقضات المتوقعة والتي لم يحسّنها الفكر الصهيوني قبل قيام الدولة . فقد عرّف القسم الأكبر منهم (٣٧) الهوية اليهودية على أساس الشريعة ، ولكن نفراً منهم تبنّى معيار الاختيار الشخصي (اليهودي هو من يعتبر نفسه كذلك) ، وتبنّى نفر آخر معيار القسر الخارجي ، أي أن اليهودي هو من يعتبره الآخرين كذلك . ومع هذا ، صدر عام ١٩٥٩ توجيه إداري ينص على تعريف اليهودي بأنه الشخص الذي ولد لأم يهودية ، وذلك لاسترضاء الحزب الديني القومي حتى يعود إلى التحالف .

وقد ضمت الوزارة التالية وزيراً للداخلية من الحزب الديني القومي ، فأصدر توجيهات إدارية عام ١٩٦٠ يُعرف فيها اليهودي بأنه من يثبت أن أمه يهودية أو أنه تهود حسب الشريعة وعلى يد حاخام أرثوذكسي . وقد وعد الحزب الديني بأن التعديل ستنتم الموافقة عليه ، ولكن الرأي العام الإسرائيلي أفشل هذه المحاولة .

ثم تفجرت القضية مرة أخرى بهجرة الأخ دانيال (أوزوالد روفايزين) الذي ولد لأبوين يهوديين في بولندا ، وانضم إلى المقاومة ضد النازية وأنقذ كثيراً من اليهود . وبعد أن قُبض عليه فر إلى دير راهبات وعاش فيه متخفياً في زي راهبة حتى انتهت

الحرب ، فاعتنق المسيحية ودخل سلك الرهبة ، وهاجر إلى إسرائيل بموافقة الفاتيكان ، وطلب اعتباره يهودياً بمقتضى قانون العودة . وقد عُرضت عليه الجنسية الإسرائيلية على أساس التجنس ، ولكنه رفض وأصر على أن يحصل على الجنسية بموجب قانون العودة ، أي باعتباره يهودياً . وقد ذكر في طلبه أن الشريعة اليهودية تقرر أن اليهودي لا ينسلخ بتاتاً عن دينه اليهودي مهما بلغت ذنوبه وذلك بحسب ما جاء في كتاب السنهررين في التلمود . وقد ذكر الأخ دانيال أنه إذا كان بوسع الملحد أن يظل يهودي القومية ، فمن باب أولى أن يعتبر هو (المسيحي) يهودياً !! وقد رفضت المحكمة العليا طلبه عام ١٩٦٦ ، وقالت في حكمها إنه وفقاً للعرف المعمول به فإن كل من يغير دينه بدین آخر يُعد غير يهودي لأنه اختار أن ينفصل عن مصير الشعب اليهودي وتاريخه (ويلاحظ أن فكرة المصير هذه ستصبح بالتدريج ركيزة التعريف اللاديني الأساسية) . وقد بيّنت المحكمة أن حكمها هذا مناف للشريعة اليهودية وأكثر تشديداً منها ، وأن الأخ دانيال قد يكون يهودياً بحسب الشريعة، ولكن لا يمكن اعتباره يهودياً من منظور قانون العودة، أي أن المحكمة أخذت بتعريف لا ديني لليهودي، وجعلت أساس اليهودية الانتماء القومي .

ومن المفارقات ، أن المؤسسة الدينية الأرثوذكسية كانت تقف ضد طلب الأخ دانيال ، أي أنها أخذت موقفاً أكثر تشديداً من الشريعة ذاتها بل ومنافيأ لها . وقد قيل في معرض نقد هذا الحكم إنه يتعلق بتعريف من هو غير اليهودي ولكن لا يعرف اليهودي من قريب أو بعيد . ولم تترك القضية أثراً عميقاً في الدولة الصهيونية لأنها لم تؤثر على علاقتها بيهود العالم . بل وشعر كثير من الإسرائيليين بأنها لا تخصهم .

وأثرت القضية مرة أخرى وبحدة عام ١٩٦٨ حينما طلب الضابط بنiamin Shalit (المتزوج من إنجليزية غير يهودية رفضت التهود بسبب لا أدريتها) تسجيل أولاده باعتبارهم إسرائيليون الجنسية يهودي القومية ، على أن يُكتب في بند الدين عبارة «لا يوجد» ، أي أنه طلب الأخذ بالتعريف الإثنبي دون الديني . وحينما رُفض طلبه ، رفع قضية في المحكمة العليا التي حكمت لصالحه عام ١٩٧٠ ، وذكرت المحكمة في حكمها أن مصطلح «قومية» خاضع للتفسير العلماني ، فأولاد شاليط ارتبطوا بمصير الشعب اليهودي وتاريخه . ومع هذا ،

أكدت المحكمة أن حكمها ينصب على الوضع المدني ، أي على قانون العودة وقانون المواطننة والإجراءات الخاصة بالتسجيل، ولا ينصرف إلى الأحوال الشخصية (مثل الزواج والطلاق) التي تختص بها المحاكم الخاقانية . وقد رفض اليهود الأرثوذكس الأخذ بهذا الحكم ، لأنه في تصورهم سيُقسم اليهود إلى قسمين : يهود مؤمنون ويهود غير مؤمنين . ولذا ، صدر عام ١٩٧٠ تعديل لقانون العودة ، وعُرف اليهودي بأنه من ولد لأم يهودية بشرط لا يكون على دين آخر . ونص أيضاً على أن اليهودي هو المتهود ، وهو تعريف يعتمد الجانبيين الإثنين والدينيين ، ولا يزال هذا التعريف هو المعتمد .

ومع هذا ، أثار التعريف غضب الدينين واللادينيين . كما أن جورج طامارين ، الحاضر في جامعة تل أبيب ، أثار جانباً آخر غير متوقع للقضية . فقد رأى أن التعريف الأخير تعريف ثيوقراطي ، أي يستند إلى أساس ديني . ولذا ، طالب بأن يُسجل في بند القومية لفظ «إسرائيلى» بدلاً من «يهودي» . وقد رُفض طلبه بطبيعة الحال ، لأن ذلك يعني رفض الصهيونية من أساسها .

أما الأرثوذكس ، فلم يعجبهم التعريف الجديد إذ أنه يعترف ضمناً باليهود المتهودين على يد حاخامات إصلاحيين ومحافظين ، وهم في نظر الأرثوذكس ليسوا يهوداً ، أو على الأقل مشكوك في يهوديتهم ، ولذلك فهم يطالبون بإضافة عبارة «تهود حسب الشريعة» (بالعبرية : كאהالاخاه) أي على يد حاخام أرثوذكسي . وتحولت القضية ، من ثم ، إلى من هو الحاخام؟ وقد قدم إلى الكنيست مشروع قرار بهذا المعنى ، رُفض في ٦ يناير ١٩٨٥ ، وتسبّب المعارض أساساً في إسقاطه . وللحظ أن هذا التعديل الأخير المفترح سيثير من المشاكل أكثر مما يحلّ ، فهو على سبيل المثال سيهز أحد الأسس التي يستند إليها التجمع الصهيوني ، وهي فكرة «الوضع الراهن» . والعبارة تشير إلى الوضع السائد في فلسطين إبان حكم الانتداب . وقد توصل الصهاينة الدينيون والصهاينة اللادينيون ، عشية إنشاء الدولة ، إلى اتفاق على أن الدولة الصهيونية ستلتزم بالشعائر والأعراف السائدة في ذلك الوقت في المجال الديني . ولا يزال الاتفاق يحكم مدى التزام الدولة بتنفيذ الشعائر الدينية .

وقد أثيرت عام ١٩٨٧ قضية شوشانا ميلر المواطننة الأمريكية التي اعتنقت اليهودية على يد حاخام إصلاحي ثم هاجرت عام ١٩٨٥ إلى إسرائيل ، حيث

رفضت وزارة الداخلية الإسرائيلية منحها الجنسية بمقتضى قانون العودة . وطلب إليها وزير الداخلية أن تنهوّد مرة أخرى على يد حاخام أرثوذكسي ، فرفضت طلبه وتقدمت بشكوى إلى القضاء . ولحسن المسألة ، اقترح الوزير أن يُكتب على بطاقة تحقيق الشخصية الخاصة بالمتّهودين لفظة « متّهود » بدلاً من « يهودي » ، سواء أكان المتّهود قد تم على يد حاخام إصلاحى أم على يد حاخام محافظ أم أرثوذكسي ، فرفضت المواطنـة ذلك أيضاً باعتبار أن هذا سيحوّلها إلى يهودية من الدرجة الثانية . وقد حكمت المحكمة لصالح الشاكـية ، فاستقال وزير الداخلية واتّهم اليهود الإصلاحـيين بأنـهم « يقودون أمة إسرائيل إلى التهـلـكة ». ولكنـ الوزارة اضطـرت في نهاية الأمر إلى تسجـيل بعض من تهـودـوا على يد حاخـمات غير أرثوذكـس باعتـبار أنـهم يهـود .

وهـناك حالـات قـامت فيها المحـاكمـ الخامـاميةـ بالتشـكـيكـ فيـ يـهـودـيـةـ بـعـضـ ضـحـاياـ الإـبـادـةـ النـازـيـةـ الـذـيـنـ اـسـتـقـرـواـ فـيـ إـسـرـائـيلـ ، بلـ وـهـنـاكـ حـالـةـ قـامتـ فيـهاـ السـلـطـاتـ الـديـنـيـةـ بـالـرـجـوعـ إـلـىـ الـأـرـشـيفـ النـازـيـ لـلتـأـكـدـ مـنـ هـوـيـةـ أـحـدـ الـيهـودـ .

وكـأـنـ مشـاـكـلـ الـهـوـيـةـ لـاـ تـنـتـهـيـ ، فـقـدـ طـرـحـتـ القـضـيـةـ مـنـ جـدـيدـ وـبـحـدـةـ بـالـغـةـ فـيـ فـبـرـاـيـرـ ١٩٨٨ـ ، حـيـنـ حـضـرـ يـهـودـيـانـ اـسـمـهـماـ جـيـرـيـ وـشـيرـلـيـ بـيرـسـفـورـدـ ، يـنـتـمـيـانـ إـلـىـ جـمـاعـةـ دـيـنـيـةـ مـسـيـحـيـةـ تـبـشـيرـيـةـ اـسـمـهـاـ رـامـاتـ هـاشـارـونـ ، وـيشـبـهـ وـضعـهـماـ وضعـ الـأـخـ دـانـيـالـ مـنـ بـعـضـ الـوـجـوهـ ، وـيـخـتـلـفـانـ عـنـهـ مـنـ الـبـعـضـ الـآـخـرـ . فـهـمـاـ يـهـودـيـانـ بـالـمـعـنـىـ الإـثـنـيـ وـهـمـاـ يـؤـمـنـانـ بـالـمـسـيـحـ ، تـمـاماـ مـثـلـ الـأـخـ دـانـيـالـ ، وـلـكـنـهـمـاـ يـخـتـلـفـانـ عـنـهـ فـيـ أـنـهـمـاـ لـمـ يـتـنـصـرـاـ ، أـيـ لـمـ يـعـتـنـقـاـ الـدـيـانـةـ الـمـسـيـحـيـةـ . وـلـاـ يـبـيـّـنـ المـصـدـرـ مـاـ مـعـنـىـ هـذـهـ الـعـبـارـةـ ، وـإـنـ كـانـ كـانـ مـنـ الـوـاضـحـ أـنـهـاـ تـعـنـيـ أـنـهـمـاـ آـمـنـاـ بـأـنـ عـيـسـىـ هـوـ الـمـسـيـحـ أـوـ الـمـاشـيـحـ الـمـنـتـظـرـ دـوـنـ الـإـيمـانـ بـبـنـوـتـهـ لـلـرـبـ .

وـقـدـ طـرـحـ حلـ صـهـيـونيـ لـلـمـشـكـلـةـ باـعـتـبارـ أـنـ قـانـونـ العـوـدـةـ قـانـونـ سـيـاسـيـ صـهـيـونيـ لـمـ يـشـاءـ ، وـقـانـونـ دـيـنـيـ لـمـ يـشـاءـ ، وـيـكـنـ لـكـلـ فـرـيقـ أـنـ يـفـسـرـهـ بـالـطـرـيـقـةـ الـتـيـ يـرـاهـاـ ، عـلـىـ أـنـ تـحـفـظـ السـلـطـةـ الـأـرـثـوذـكـسـيـةـ بـسـلـطـتهاـ كـامـلـةـ فـيـ أـمـورـ الـأـحـوالـ الـشـخـصـيـةـ وـفـيـ عـمـلـيـاتـ التـهـويـدـ الـتـيـ تـتـمـ دـاـخـلـ إـسـرـائـيلـ . وـتـحـاـولـ بـعـضـ الـأـحزـابـ الـدـيـنـيـةـ تـبـيـّـنـ مـوـقـفـ مـاـئـلـ ، لـكـنـهـمـ بـدـلـاـ مـنـ الـمـطـالـبـ بـتـغـيـيرـ قـانـونـ العـوـدـةـ يـطـالـبـونـ بـتـغـيـيرـ قـانـونـ الـمـحاـكـمـ الـخـاصـيـةـ بـحـيـثـ يـصـبـحـ مـنـ صـلـاحـيـاتـهـاـ أـنـ تـقـرـرـ مـنـ هـوـ الـيـهـودـيـ وـمـنـ هـوـ غـيـرـ الـيـهـودـيـ ، بـدـلـاـ مـنـ وزـارـةـ الدـاخـلـيـةـ . وـفـيـ هـذـهـ الـحـالـةـ ،

سيمكنا أن تسقط صفة اليهودية عن الحاخamas الإصلاحيين والمحافظين . ولكن جماعة حبد الأرثوذكسيّة ترفض مثل هذا الحل .

وفي تصوّرنا أن أزمة الهوية اليهودية ستتعمق ولن تُحسّم في المستقبل القريب لأسباب عديدة تتصل بالتطورات داخل المستوطن الصهيوني وخارجها . أما داخل المستوطن الصهيوني ، فقد لوحظ ، على عكس ما توقع المفكرون الصهاينة ، أن التطورات والآليات الاجتماعية لم تؤد إلى صهر العناصر اليهودية الدينية واللادينية والإشكنازية والسفاردية وغيرها ، وإنما ازدادت الصورة استقطاباً وتطرفاً . وإذا ما ركزنا على الجانب الديني مقابل العلماني ، نلاحظ ظهور هوية يهودية جديدة بالإضافة إلى عدم التجانس ، وهي هوية الصابرا من الأشكناز التي يتسم أصحابها بسمات خاصة ، كمعادة العقل والفكر وحب العنف والتحلل من القيم الأخلاقية ، بل إنهم يكتنون احتقاراً عميقاً ليهود المنفى ، أي يهود العالم كله (وقد كان المؤمل في الصابرا أن يكونوا الترجمة العملية لليهودي الحالص) . وإلى جانب ذلك ، يلاحظ تزايد معدلات العلمنة في التجمع الصهيوني (الذي وصفه أمنون روبيشتاين بأنه من أكثر المجتمعات إباحية على وجه الأرض) . وبحسب بعض الإحصاءات ، يبلغ عدد المواطنين الذين لا يؤمنون بالخالق ٨٠٪ من كل الإسرائيليين . وهؤلاء ينظرون إلى الشعائر الدينية باعتبارها فلكلوراً قومياً . وتُعدُّ الأعياد الدينية بالنسبة إليهم أعياداً قومية ، والعبرية ليست لغة الصلاة (اللسان المقدس) وإنما هي لغة البيع والشراء والجماع . وقد أصبح يوم السبت ، وهو يوم راحة وتعبد من الناحية الدينية ، يوم صخب ولهو في الدولة التي يُقال لها «يهودية» . ولا يراعي كثير من الإسرائيليين قوانين الطعام الشرعي ، ويُقال إن نصف اللحم المستهلك في إسرائيل من لحم الخنزير .

لكل هذا ، حينما عُرضت قضية جيري وشيرلي بيرسفورد على الرأي العام الإسرائيلي ، قال ٧٨٪ منهم إنه يجب منحهما الجنسية الإسرائيلية إن كانوا صهاين ، وعلى استعداد لأن يرتبطا بالمصير اليهودي . ومعنى هذا أن الإسرائيليين استخدموا معياراً قومياً لا دينياً صرفاً ، ولو تم الأخذ به سيظهر نوع جديد من اليهود الذين يؤمنون بال المسيح عيسى بن مريم ، ولا أصبح الآخر دانياً يهودياً برغم حكم المحكمة العليا .

مقابل هذا التعاوّض في معدلات العلمنة ، هناك تعااظم أيضاً في الترعة الدينية

يتضح في هجوم المؤسسة الدينية على الصور والمظاهر الإباحية في إسرائيل ، وإصرارها على إقامة شعائر السبت ، وفي إصرارها على تعديل قانون العودة . وينعكس هذا الاستقطاب القومي في واقعة حرق اللاذينيين معبدًا يهودياً احتجاجاً على نشاط المتدينين . ويتبين الاستقطاب أيضاً في ظهور عاصمتين للتجمع الصهيوني ؛ إحداهما علمانية تماماً في تل أبيب ، والأخرى في القدس يتزايد فيها نفوذ الأرثوذكس . وفي مثل هذا الإطار ، يصبح الإجماع القومي ، أو حتى الهدنة الاجتماعية القومية بشأن تعريف الهوية اليهودية ، أمراً مستبعداً . وما يعمق المشكلة أن ثمة استقطاباً مماثلاً يحدث بين يهود العالم الذين تزداد بينهم معدلات العلمنة والزواج المختلط .

ويلاحظ أن مشكلة السفارد قد ازدادت تفاقماً ، خصوصاً مع ازدياد عددهم وأزيدوا ثقتهم بأنفسهم . فال人群中 الصهيوني يعتبرهم يهوداً وحسب ماداموا في بلادهم ، وهذا جزء من حملته الإعلامية ، ولكنهم يصبحون يهوداً شرقين فور وصولهم إلى إسرائيل ، إذ أن التجمع الصهيوني يحتاج إليهم باعتبار أنهم مادة بشرية قادرة على حل أزمة المصادر البشرية التي يعاني منها ، وعلى العمل في قاعدة الهرم الاقتصادي الإنتاجية . لكن إصرار السفارد على الحراك الاجتماعي ، باعتبارهم يهوداً بشكل عام ، سيجعلهم يشغلون الدرجات العليا من الهرم ، ويتربكون قاعدهم خالية يشغلها العرب . وبهذا تشتبك مشكلة الهوية مع واحدة من أعمق مشكلات التجمع الصهيوني ، وهي مشكلة الإنتاجية ، خصوصاً وأن الصهاينة يدعون أن اليهودي الجديد شخصية منتجة على خلاف يهود المنفى الهاشميين المرابين .

وقضية الهوية اليهودية قضية محورية . فالدولة الصهيونية تكتسب شرعيتها ، أمام نفسها وأمام الكثيرين ، من ادعائهما أنها دولة يهودية ، لكن استمرار تفجُّر هذه القضية يقوض دعائم هذه الشرعية . كما أن تعديل قانون العودة سيؤدي إلى استبعاد ما يقرب من ٨٠٪ من يهود العالم (وربما أكثر) من يُعرفون اليهودي على أساس دينية ذاتية أو على أساس إصلاحية ومحافظة ولا يقبلون اليهودية الأرثوذكسية .

ومن القضايا الأخرى المرتبطة بقضية «من هو اليهودي؟» قضية «من هو الصهيوني؟» ، وهل هو اليهودي الذي يهاجر إلى إسرائيل ، أي من يمارس

الصهيونية الاستيطانية أم اليهودي الذي يدعم المستوطن الصهيوني دون أن يهاجر ويكتفي بالصهيونية التوطينية؟ وهي قضية تمس الهوية ولكنها لا تصل في عمقها إلى قضية «من هو اليهودي؟».

وكل هذه العناصر والتواترات والتناقضات تجعل من العسير على اليهود أنفسهم تصديق مقوله الشعب اليهودي الذي يتجاوز الأزمنة والأمكنة والذي يحمل داخله جوهراً يهودياً. فقد أثبت الواقع العملي أنه لا يوجد جوهر واحد، بل هي سمات عديدة متنوعة بتنوع التشكيلات الحضارية والتاريخية التي يتواجد فيها اليهود. وقد أثّرت القضية مرة أخرى مع وصول المهاجرين اليهود السوفييت. وكما بيّنت المؤسسة الدينية، فإن معظمهم ليسوا يهوداً، فهم إما من أصل مسيحي تزوجوا من يهود أو هم من مدعى اليهودية. بل واتضح أن اليهودية بالنسبة لليهودي منهم لا تمثل سوى أصداء خافتة للغاية. ومع هذا، رحبت المؤسسة الصهيونية بوصولهم، فهي في حاجة ماسة للمادة الاستيطانية. وال الحاجة نفسها هي التي تفسر الترحيب بال فلاشا موراه (وهم أشباء يهود تَنصرُوا بكامل إرادتهم منذ قرنين من الزمن). وكل هذه المؤشرات تدل على أن المؤسسة الصهيونية، نظراً ل حاجتها للمادة البشرية الاستيطانية، قد تجعل من اليهودية قشرة رقيقة للغاية (مثل الانتماء المسيحي في جنوب أفريقيا) إذ أن المطلوب هو مادة استيطانية غير عربية يضمن الكيان الصهيوني لنفسه الاستمرار من خلالها.

استجابة أعضاء الجماعات اليهودية للتعريف الصهيونية للروايات اليهودية

طرحت الصهيونية (في صيغتها اللادينية) نفسها كحركة لتطبيع اليهود ، وطرح مفهوم «اليهودي الخالص» صاحب الهوية اليهودية الحقيقة ليحل محل «يهودي المنفى» الذي يخفي هويته ويترافق مع هوية الآخرين . والدولة الصهيونية التي يُقال لها «يهودية» ستكون هي المسرح الذي تتحقق عليه هذه الهوية . وقد قبل بعض الصهاينة الدينيين المشروع الصهيوني وتحالفوا مع اللادينيين على أمل أن تُتاح لهم الفرصة بعد ذلك أن يفرضوا رؤيتهم الدينية بحيث يصبح «اليهودي الحقيقي » هو اليهودي حسب التعريف الأرثوذكسي . وقد أدى هذا إلى توترات عميقة بين الدولة الصهيونية من جهة والجماعات اليهودية في العالم ، بكل ما ترسم به من تنوع وعدم تجانس ، من جهة أخرى .

والصهيونية ، كما بینا ، ترى أن الهوية اليهودية خارج المستوطن الصهيوني هوية ناقصة مريضة يجب إلغاءها ، وهذا ما يُسمى «نفي الدياسبورة» في المصطلح الصهيوني (أي تصفية الجماعات اليهودية أو استغلالها) . وقد نجم عن ذلك صراع حاد بين أعضاء الجماعات اليهودية والمستوطن الصهيوني ، إذ أن أعضاء الجماعات يرون أن هويتهم ، أو هوياتهم اليهودية ، ليست مريضة وإنما هي جديرة بالحفظ عليها وتنميتها ، في حين تحاول المؤسسة الصهيونية أن تقلل من شأنها وأن يجعل منها وقوداً يغذي الدولة الصهيونية . ولذا ، فهي تجعل من الهجرة إلى فلسطين المحتلة والاستيطان فيها ، المعيار الوحيد لتقييم مدى صهيونية اليهودي ومدى يهوتيه . وهذه المشكلة تنفجر دائماً داخل المؤتمرات الصهيونية وخارجها .

١ - وانطلاقاً من المفهوم الصهيوني للهوية اليهودية الحقيقة ، تتصرف الدولة الصهيونية أحياناً بطريقة لا تخدم صالح أعضاء الجماعات اليهودية وإنما تخدم

مصالحها هي على حسابهم . وربما تكون حادثة بولارد نقطة مهمة في هذا الصراع ، فهي تمثل تصادماً بين روبيتين للهوية : واحدة صهيونية والأخرى أمريكية يهودية . فتذهب الرؤية الصهيونية إلى أن الأمريكي اليهودي يهودي أولاً وأخيراً ، ولذا لابد أن يخدم الدولة الصهيونية ، في حين تذهب الرؤية الأمريكية اليهودية إلى أن الأمريكي اليهودي هو أمريكي في المقام الأول وله مصالح تختلف عن مصالح الدولة الصهيونية .

٢ - عندما ينظر يهود العالم ، خصوصاً المتدينون منهم ، إلى الدولة التي يُقال لها «يهودية» ، يكتشفون أن هويتها وهوية سكانها ليست يهودية على الإطلاق . فمعدلات العلمنة عالية للغاية بين الإسرائيليين ، وهو الأمر الذي يصدم الزوار اليهود للدولة الصهيونية الذين يهربون من مجتمعاتهم الاستهلاكية ويحضرون إلى إسرائيل فيفاجئون بمجتمع إباحي مفتوح أكثر علمانية من المجتمعات غير اليهودية التي تركوها وراءهم . والواقع أن المجتمع الإسرائيلي بدأ ، منذ السبعينيات ، يتوجه توجهاً استهلاكياً حاداً لا يضبهه أي ضابط أخلاقي أو حضاري أو عقائدي . وهذه التساؤلات ليست مقصورة على المتدينين ، فاليهود اللادينيون ، أو المندمجون الذين لا يقيمون شعائر دينهم ، يحاولون التمتع بشيءٍ من الهوية والتجربة الدينية عن طريق إسرائيل . فبرغم أنهم يتمتعون تماماً بالاستهلاك والحضارة العلمانية في بلادهم ، فإنهم يذهبون إلى إسرائيل ويدفعون لها الإعانات ليعيشوا تجربة دينية قومية (ولو بشكل مؤقت ، وكان إسرائيل ديزني لاند يهودية ، على حد قول أحد الحاخامات) . ولكن العلمانية الصريحة للدولة اليهودية تحرمهم من هذه المتعة وتلك الإثارة .

٣ - كما يسأل اليهود المتدينون : بأي معنى يمكن إطلاق تسمية الدولة الصهيونية على الدولة اليهودية وهي تُسوّي كل خلافاتها مع الآخرين عن طريق العنف العسكري ولا يمكن محاكمتها بمعايير أخلاقية يهودية ؟ كما أن الطريقة التي يتم بها قمع الانتفاضة يصعب تسميتها «يهودية» مهما تخلى الإنسان بالكرم والخيال .

٤ - يشكون اليهود المتدينون من أن التعريف الصهيوني للهوية اليهودية قد صادر الرموز والمصطلحات الدينية ، بحيث يتصور كثير من اليهود الآن أن اليهودية والصهيونية أمران متراوكان ، وأن المرء يمكنه أن يحقق هويته اليهودية عن طريق

التبّر للدولة الصهيونية وعن طريق شراء سندات إسرائيل . وكما قال الحاخام ألكسندر شندرلر : « يتصرّف بعض اليهود الآن أن إسرائيل هي معبدهم اليهودي ، وأن رئيس وزرائها هو حاخامهم الأكبر ! » .

ولكن نقطة الاشتباك الكبرى بين أعضاء الجماعات والدولة الصهيونية هي في مجال تعريف هوية اليهودي والمعيار المستخدم في هذا التعريف ، إذ تُصرُّ المؤسسة الدينية ، مُمثلة في أحزابها الدينية ، على تبنّي تعريف أرثوذكسي . وقد حدثت مواجهة سريعة بين يهود العالم والمؤسسة الدينية في حالة يهود الهند (بني إسرائيل) في الخمسينيات ، وفي حالة يهود الفلاشا في الثمانينيات ، ومع القرّائين والسamarيين عبر كل هذه السنوات . وكان جوهر المواجهة دائمًا هو إصرار المؤسسة الدينية على التمسك بتعريفها لليهودي ، والذي يستبعد أعضاء هذه الجماعات . وقد حُسمت هذه المواجهات إما بتهود أعضاء هذه الجماعات مرة أخرى حسب الشريعة ، وإما بتراجعهم وقبولهم مرتبة ثانوية في الهرم الديني اليهودي . كما أن المؤسسة أبدت من جانبها شيئاً من المرونة تجاههم . ولكن كل هذه المواجهات كانت مع جماعات صغيرة لا نفوذ لها انفصلت منذ قرون طويلة عن اليهودية الحاخامية ، ولذا لم تتسبب المواجهة في تفجير أزمة عامة ذات أثر عميق . أما المواجهة مع يهود الولايات المتحدة وروسيا وأوكرانيا وغيرهم من الجماعات اليهودية بشأن الموضوع نفسه ، فهي مواجهة مهمة وعميقة لها أعمق الأثر في كل من الدولة الصهيونية وأعضاء الجماعات .

وبشكلٍ عام ، يمكن القول بأن القيم العلمانية تنتشر في الوقت الراهن بين أغلبية يهود العالم ، فهم إما منصرفون عن الدين تماماً وإما يتبنّون الصيغ المخففة منه والمتمثلة في اليهودية الإصلاحية والمحافظة ، ولم يَعُد بينهم سوى أقلية أرثوذكسيّة . وفي الولايات المتحدة ، يبلغ عدد اليهود الإصلاحيين والمحافظين مليونين ولا يوجد سوى ٤٠٠ ألف أرثوذكسي . أما بقية اليهود ، فهم إما لأدريون أو غير مكتّرين باليهودية ، ولكنهم يلجأون إلى حاخامات إصلاحيين أو محافظين في أمور الزواج وغيرها . وربما تكون درجة علمنة يهود روسيا وأوكرانيا أعلى من ذلك بكثير . ومع هذا ، وبرغم علمنة هؤلاء اليهود ، وبرغم ابتعاد المتدينين منهم عن الأرثوذكسيّة ، فإنّهم يتمسكون ببقايا هويتهم الإثنية ، ربما بتأثير الصهيونية . ولذا ، فهم يصرّون على تسمية أنفسهم « يهود » برغم

انصرافهم عن العقيدة ، ثم يطالبون بتبني تعريف تعددي لليهودية ، أي أيَّ تعريف يروق لهم بحيث يتم قبول أي يهودي يرى أنه يهودي . وهم ينظرون إلى الدولة الصهيونية باعتبارها دولة تعددية يهودية ، بالمعنى الإثني ، يمكنهم تحقيق هويتهم من خلالها . وفي هذا الإطار ، ليس من المستغرب أن يؤدي التعديل المقترن لقانون العودة (بحيث يُعرَف اليهودي بأنه «المتهود بحسب الشريعة» أي على يد حاخام أرثوذكسي) إلى تفجير التناقضات الكامنة إذ أنه ، في واقع الأمر ، يستبعد أغلبية المتهودين وعائلاتهم في الولايات المتحدة . ومن المعروف أن عشرة آلاف أمريكي يتهودون سنوياً نظراً لزواجهم من أقران يهود ، ولا يتهود سوى ألف منهم أمام محاكم أرثوذكسية ، أما الباقون فيتهودون على يد حاخامات إصلاحيين ومحافظين ، ولا تعرف الحاخامية في إسرائيل بهم كيهود .

وهناك مشكلة أخرى أثيرت عدة مرات ولن يحسّنها التعريف الجديد حتى لو تم تبنيه . فالحاخamas الأرثوذكس يطلبون ما يُسمى «جيط» من كل يهودية مطلقة ، أي شهادة طلاق من محكمة شرعية يهودية ليصبح الطلاق شرعاً ، وهو تقليد أبطله الحاخamas الإصلاحيون . ولذا ، فإن أية يهودية مطلقة تتزوج دون أن تحصل على شهادة طلاق شرعي ، يُعتبر أطفالها (بحسب التصور الأرثوذكسي) غير شرعيين ، حتى لو كانت هي يهودية معترفاً بيهوديتها من المؤسسة الأرثوذكسية . ولهذا ، فمن المتوقع أن تتفاقم المشكلة بسبب ازدياد معدلات الطلاق غير الشرعي بين اليهود في الخارج ، سواء في الولايات المتحدة أو في كومونولث الدول المستقلة (الاتحاد السوفيتي سابقاً) ، وبسبب جهل كثير منهم بقضية الجيط هذه !

ويدرك أعضاء الجماعات اليهودية ، خصوصاً في الولايات المتحدة ، المضمون الخفي الكامن وراء تعديل قانون العودة تماماً ، والمحاولة الرامية إلى ذلك . ومن هنا كانت حدة استجابتهم لهذه المحاولة إلى درجة أدهشت القيادات في اجتماع مجلس الفيدراليات الأمريكية الذي خُصص لمناقشة هذه القضية (١٩٨٨) ، ومجلس الفيدراليات هو التنظيم الذي يضم سائر التنظيمات اليهودية الأمريكية . فعندما حاولت القيادة التقليل من أهمية التعديل المقترن والتلهي من شأنه ، ثارت القاعدة وأعلنت سخطها وأعلنت كذلك عن نيتها أن تترجم هذا السخط إلى فعل ضد إسرائيل . بل إن بعضهم اشتكت إلى نوابهم في الكونجرس الأمريكي من

التعديل المزمع ، وقام هؤلاء النواب ، وبعضهم من غير اليهود ، بنقل شكوى ناخبيهم من اليهود إلى حكومة الدولة اليهودية . وتتحدث الصحف الإسرائلية عن احتمال أن تُناقش المسألة في الكونجرس الأمريكي عند مناقشة المعونة الأمريكية لإسرائيل . وهكذا ، فبدلاً من أن تستخدم الدولة الصهيونية الدياسبورا أداة للضغط على الولايات المتحدة لتحقيق مصالحها ، يقومأعضاء الجماعة الأمريكية اليهودية بالضغط على الدولة الصهيونية من خلال الولايات المتحدة للحفاظ على مصالحهم . ويُقال إن استجابة يهود الولايات المتحدة لتعديل قانون العودة يشبه في حدته استجابتهم لحرب ١٩٦٧ ، حين أحسوا بالفخر الشديد لانتصار القوات الإسرائيلية ، أي حين تضخمت هويتهم اليهودية المزعومة بسبب انتصار جيوش الدولة اليهودية . وقانون العودة يمس هذه الهوية ، ذلك لأن تعديله ينزع عنهم هويتهم هذه ويجعل منهم مجرد يهود إصلاحيين أو محافظين ، أي يهود من الدرجة الثانية . ويجب ملاحظة أنه بينما أصبحت اليهودية ، بالنسبة إلى معظم سكان المستوطن الصهيوني مسألة قومية وليس دينية محضة (ولهذا فهم لا يكترون بموقف المؤسسة الأرثوذكسية) ، فإن الأمر جد مختلف بالنسبة إلى يهود العالم ، فيهوديتهم برغم علمانيتهم الواضحة لا يمكن أن تُعرف تعريفاً قومياً وحسب ، حيث يتنافى هذا مع انتمائهم القومي . ولذلك ، يظل البعد الديني ، برغم شكليته وضموره ، أكثر أهمية بالنسبة إليهم من أهميته بالنسبة إلى الإسرائيликين .

ومن إنجازات الانتفاضة أنها ، بوصولها إلى الإعلام الخارجي ، قد حولت النضال الفلسطيني من قضية سياسية أو أخلاقية إلى قضية إعلامية تمثل صورة اليهودي وبالتالي هويته ورؤيته لها . ولعل الأفلام اليومية على شاشة التليفزيون الأمريكي قد ساعدت على تهيئة الجو لشورة الأمريكيين اليهود ، وغيرهم من أعضاء الجماعات ، على القيادات الصهيونية ورفضهم تعديل قانون العودة .

وثمة تطور ثالث شديد الأهمية يتمثل في البقعة التي يلتقي فيها يهود العالم بالمستوطن الصهيوني : أي المنظمة الصهيونية العالمية . فقد شهد العقدان السابقان صهينة قطاعات كبيرة من يهود الولايات المتحدة كانت ترفض الصهيونية من قبل . فاليهودية الإصلاحية التي تشجع الاندماج ، كانت ترفض الصهيونية بشكل عقائدي عند نشأتها ، كما كان بعض مفكري اليهودية المحافظة يرفضونها .

ولكنهم ، بمرور الزمن ، تناسوا هذه الاعتراضات وانتهت بهم الأمر إلى الانضمام إلى المنظمة الصهيونية العالمية . هذا ، بينما يلاحظ أن الجماعات اليهودية الدينية ، وضمن ذلك بعض الأحزاب الدينية في إسرائيل ، إما معادية للصهيونية وإما غير صهيونية وغير ممثلة في المنظمة الصهيونية .

وقد انعكس هذا الوضع على انتخابات المؤتمر الصهيوني الحادي والثلاثين (١٩٨٧) التي أسفرت عن فوز أغلبية من حزب العمال الإسرائيلي وممثلي اليهود الإصلاحيين والمحافظين والعلمانيين . وهذه هي المرة الأولى التي لا يعكس فيها تكوين المنظمة الصهيونية موازين القوى داخل الدولة الصهيونية . وقد قضى المؤتمر (٢٩١ صوتاً ضد ٢٧١ صوتاً) بضرورة المساواة الكاملة بين جميع اتجاهات اليهودية ، الأمر الذي أدى بحركة المزراحي (الصهيونية الدينية) إلى التهديد بإعادة النظر في وضعها داخل الحركة الصهيونية . الواقع أن هذا الوضع يناقض الوضع داخل الدولة الصهيونية حيث يتناهى نفوذ الأحزاب الدينية .

وقد أثار وصول المهاجرين السوفيت مشكلة الهوية مرة أخرى . فعدد اليهود السوفيت حسب آخر إحصاء هو ١٥٠٠٠٠٠ وحسب ، فمن أين أتت الأعداد الضخمة ، خصوصاً ونحن نعرف أن اليهود السوفيت حققوا معدلات عالية من الاندماج وأنهم جماعة مسنة ؟ ولتفسير هذا نذهب إلى أن اليهود الذين يهاجرون إلى إسرائيل يضمون في صفوفهم عدداً كبيراً من اليهود المتخفين الذين كانوا قد فقدوا علاقتهم باليهودية تماماً ولم يسجلوا أنفسهم كيهود ، ولكنهم اكتشفوا مؤخراً أن مسألة الانتساب اليهودي مسألة مربحة وأنها ستتضمن لهم تأشيرة خروج من الدولة السوفيتية وتأشيرة دخول إلى الدولة الصهيونية . ولعل هذه هي المرة الأولى في التاريخ التي يظهر فيها مثل هذا الموقف : أن يكون في صالح المرء أن يكتشف جذوره اليهودية ويعملها ويوظفها . وأشباه اليهود هؤلاء غير مختتنين وغير متزوجين من يهوديات وأولادهم غير يهود ولا يربطهم باليهودية سوى أن لهم جداً مدفوناً في موسكو (على حد قول أحد الحاخامات الإسرائيليين) . كما أن هناك فريقاً آخر من نسمتهم مدعي اليهودية ، وهؤلاء ليسوا يهوداً ويشترون شهادة ميلاد تثبت أنهم يهود . وهذه الآلاف تصل إلى إسرائيل وتطالب بالجنسية حسب قانون العودة . ويقال إن نسبتهم بين المهاجرين يمكن أن تصل إلى ٣٠٪ . وقد بدأت المؤسسة الحاخامية تحذر من أن إسرائيل قد تصبح دولة غير يهودية .

ولكن المؤسسة الإشكنازية الحاكمة (اللادينية) لا تجد أية غضاضة في استقبال هؤلاء المهاجرين ماداموا سيحلون المشكلة السكانية لإسرائيل ، ولا تمانع في تقبّل التعريف العلماني الذي وضعه شارانسكي لليهودي باعتباره من يشعر أنه يهودي مُضطهد . وهو تعريف لا تأخذ به ، بطبيعة الحال ، المؤسسة الحاخامية . ولهذا أُسّست محكمة شرعية في موسكو للتحقق من الهوية اليهودية للمهاجرين ، الأمر الذي يثير حفيظتهم ويؤدي إلى احتجاج العناصر اللادينية في إسرائيل .

وتعتبر الأزمة التي تعتمل داخل الدولة الصهيونية ، وفي صفوف الجماعات اليهودية في العالم ، نتيجةً لمحاولة تبني التعريف الديني أو التعريف اللاديني الصهيوني للهوية ، أمراً طبيعياً ومتوقعاً . فهذا التعريف لا يأخذ في الاعتبار تموجات التاريخ وتعرجاته ولا ينبع منها ، ويتجاهل التركيب الجيولوجي للعقائد والجماعات اليهودية ، كما أنه مجرد تعريف عقائدي يفرض نفسه فرضاً على واقع متتنوع . فهو يفترض وجود هوية يهودية واحدة رغم وجود هويات يهودية عديدة متنوعة أهمها « الهوية اليهودية الجديدة » ، التي تهمنش العنصر اليهودي . والتعريف الصهيوني يرى أن اليهود شعب واحد له تاريخ واحد ، وهم في الواقع الأمر جماعات منتشرة لها تجارب تاريخية متعددة ذات انتمامات قومية وإثنية وطبقية ودينية متعددة . كما أن أعضاء هذه الجماعات ، حين يستوطنون فلسطين المحتلة ، يحملون معهم انتماماتهم وتجاربهم التاريخية ، شاعوا أم أبوا . وحينما يتبنون تعريفاً صهيونياً لهويتهم ، تنفجر الأزمة إذ تكتشف أغلبيتهم العظمى أنهم ليسوا يهوداً أو أن يهوديتهم مشكوك فيها بل ومرفوضة ، كما حدث ليهودبني إسرائيل وال فلاشا ، وكما سيحدث ليهود الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي لو تم تعديل قانون العودة .

الاختلاف بين الفكر الديني الإصلاحي والمحافظ، والفكر الأرثوذكسي

وجدنا أنه قد يكون من المفيد (في هذه الطبعة الثانية) أن نرصد بعض التطورات الأخيرة في الكيان الصهيوني ، وسندرج أولاً بعض الفروق الأساسية بين «المذاهب» المختلفة (الإصلاحية والمحافظة والأرثوذكسية) . وكلمة «مذاهب» حينما تُطبق على اليهودية واتجاهاتها المختلفة قد يكون أمراً خطأً إلى حدٍ ما . فعلى سبيل المثال ، وصف الحاخام الأرثوذكسي الإسرائيلي تسفي هلبرشتاين اليهود "الإصلاحيين بأنهم كفرة [لم يستخدم الحاخام نفسه كلمة «يهود» أصلاً] أخرجوا أنفسهم عن الدين اليهودي ، وأصبحوا خارج السياج الحيط بشعب إسرائيل ، وليس لهم أية حصة في أرض إسرائيل" . ثم أضاف قائلاً : «إنهم طابور خامس ، خططه علينا أكبر من خطط التنازل عن أرض إسرائيل للعرب» ، أي أن هذا الحاخام الأرثوذكسي يرى أن اليهود الإصلاحيين [والمحافظين بطبيعة الحال] أكثر خطراً عليه من العرب (أعدى أعداء اليهود ، والجوييم بامتياز ، حسب الرؤية الصهيونية) ، وكما يقول الحاخام إنه يفضل أن يعطي الأرض للعرب ، على أن يساوم عليها في علاقته باليهودي الإصلاحي (والمحافظ) . وقد صرخ حاخام آخر (أرثوذكسي / أمريكي) بأن اليهودية ، في الواقع الأمر ، قد انقسمت إلى يهوديتين: اليهودية الإصلاحية والمحافظة من جهة ، واليهودية الأرثوذكسية من جهة أخرى . فنحن هنا لا نتحدث عن «مذاهب» بالمعنى الشائع للكلمة ، وإنما نتحدث عن انقسامات عميقة ، أكثر عمقاً مما هو معهود في أصحاب الدين الواحد . ويمكننا الآن أن نتناول كل مذهب على حدة .

١ - اليهودية الإصلاحية

تشترك كل من الحركة اليهودية الإصلاحية واليهودية المحافظة في أنهما تحاولان حل إشكالية الحلول الإلهي في الشعب اليهودي وفي مؤسساته القومية . فمثلاً هذا الحلول يجعل منهم شعباً مقدساً ملتفاً حول نفسه ، يشير إلى ذاته دون الإشارة إلى شيء خارجه ، وهذا أمر مقبول داخل إطار المجتمع التقليدي ، المبني على الإرادة الذاتية للأقليات . وهو أمر مفهوم حينما كان اليهود يضططعون بدور الجماعة الوظيفية التي تعزل نفسها عن المجتمع لتلعب دورها المحايد . ولكن ، مع ظهور الدولة القومية التي ترى نفسها مطلقاً فهي مرجعية ذاتها لا تقبل مرجعية متتجاوزة لها ، أصبح من الصعب أن تتعايش نقطتان مطلقتان داخل المجتمع الواحد . ولذا ، كان على أعضاء الجماعات اليهودية أن يتعاملوا بشكل أو باخر مع الحلولية اليهودية التقليدية ، وكان عليهم التوصل إلى صيغة حديثة لليهودية يمكنها التعايش مع الدولة القومية الحديثة المطلقة مع إصرارها على أن يعيده اليهودي صياغة ذاته ورؤيته حتى يدين لها وحدها بالولاء . وقد حاولت اليهودية الإصلاحية واليهودية المحافظة حل إشكالية الشعب المقدس عن طريق تبني الحل الغربي للمشكلة وهو أن يكون الحلول الإلهي في نقطة ما في الطبيعة أو في الإنسان أو في التاريخ ، بحيث يشكل المطلق ركيزة نهائية كامنة في هذه النقطة وغير متتجاوزة لها . وقد ظهر العديد من هذه المطلقات الدنيوية أو الغيبيات العلمانية . ولكن الذي يهمنا هو المطلق الدنسوي الذي يُسمى «روح» (جايست) في أدبيات القرن التاسع عشر في أوروبا («روح المكان» أو «روح العصر» أو «روح الشعب» أو «روح الأمة») الذي حل محل الإله . وبينما آمن الإصلاحيون بروح العصر (بالألمانية: تسایت جایست Zeitgeist) ، آمن المحافظون بروح الشعب العضوي (فولك) .

وهذه الصياغة من الحلولية تلغى الإله كنقطة متتجاوزة ، فمصدر القداسة كامن في المادة . وبالنسبة لليهودية الإصلاحية ، فهي توسيع نطاق نقطة الحلول بحيث يصبح المطلق (روح العصر) إطاراً يضم كلاً من اليهود والأغيار . وبذلك تكون اليهودية الإصلاحية قد وصلت إلى صيغة معاصرة لليهودية تلائم العصر ، وتتخلص من آثار الحلولية الحادة والجامدة التي كانت تدور في فلكها اليهودية الخامامية والتي عزلت اليهود عن مجتمعاتهم وجعلت معتقداتهم الدينية عبئاً

ينوون بحمله ، وجعلت تعاليشهم مع المطلق الجديد (الدولة العلمانية الحديثة) مستحيلاً . ويمكن القول بأن جوهر مشروع اليهودية الإصلاحية هو محاولة نزع القداسة عن كثير من المعتقدات الدينية اليهودية ووضعها في إطار تاريخي ، وذلك حتى يتتسنى التمييز بين ما هو مطلق ومحرر من الزمان والمكان وبين ما هو نسبي ومرتبط بهما . وهي عملية تجمّع عنها تضييق نطاق المطلق والمقدس وتوسيع نطاق النسبي حيث يتمكّن أعضاء الجماعات اليهودية المشاركة في الإيمان بالمطلقات القومية والصناعية والمادية في مجتمعاتهم الحديثة . ولذا ، عدّ الإصلاحيون فكرة التوراة ، فهي – بالنسبة لهم – مجرد نصوص أو حجّ الإله بها للعبرانيين الأولين ، ولذا يجب احترامها كرؤى عميقـة ، ولكنها يجب أن تتكيف مع العصور المختلفة . فشـمة فرق بين الوحي والإلهـام ، إذ أن الإلهـام ليس خالصاً أو صافياً ، فالبشر يصبـغونه بعادـاتـهم ولغـتهم فـيختـلطـ بـعـناـصـرـ تـارـيـخـيـةـ دـنيـوـيـةـ . لـكـلـ هـذـاـ ، يـجبـ علىـ اليـهـودـيـ أـنـ يـحاـولـ فـهـمـ وـتـفـسـيرـ هـذـاـ الـوـحـيـ ، أوـ الإـلـهـامـ منـ آـوـنـةـ إـلـىـ آـخـرـىـ ، وـأـنـ يـنـفـذـ مـنـهـ مـاـ هوـ مـكـنـ فيـ لـحـظـتـهـ التـارـيـخـيـةـ . وبـهـذـاـ ، يـصـبـغـ لـلـقـانـونـ الإـلـهـيـ (الـشـرـيـعـةـ) السـلـطـةـ وـالـحـقـ ، طـلـمـاـ كـانـتـ أـوـضـاعـ الـحـبـاـةـ التـيـ جـاءـ لـمـعـاجـلـتـهـاـ مـسـتـمـرـةـ . وـعـنـدـمـاـ تـتـغـيـرـ أـوـضـاعـ ، يـجـبـ أـنـ يـنـسـخـ الـقـانـونـ ، حتـىـ وـإـنـ كـانـ الإـلـهـ صـاحـبـهـ وـمـشـرـعـهـ ، أيـ أـنـ الشـرـيـعـةـ فـقـدـتـ سـلـطـتـهـاـ الإـلـزـامـيـةـ المـطـلـقـةـ وأـصـبـحـتـ رـوـحـ الـعـصـرـ النـقـطـةـ المـرـجـعـيـةـ وـالـرـكـيـزةـ النـهـائـيـةـ . ولـلـعـهـدـ الـقـدـيمـ ، عـلـىـ سـبـيلـ المـثالـ ، جـانـبـ : أحـدـهـماـ مـقـدـسـ وـالـآـخـرـ دـنـيـوـيـ . وـقـدـ سـقـطـتـ فـاعـلـيـةـ الـجـانـبـ الثـانـيـ بـهـدـمـ الـهـيـكـلـ ، وـسـقـطـ معـ هـذـهـ العـمـلـيـةـ كـلـ مـاـ لـهـ عـلـاقـةـ بـالـهـيـكـلـ أوـ الـدـوـلـةـ ، وـبـقـيـ الـجزـءـ المـقـدـسـ أوـ الـمـطـلـقـ وـحـدـهـ . وـبـطـبـيـعـةـ الـحـالـ ، لـاـ يـعـرـفـ الـيـهـودـ الإـلـصـاـحـيـوـنـ بـالـشـرـيـعـةـ الشـفـوـيـةـ (الـتـعـبـيرـ الـمـسـتـمـرـ عـنـ الـحـلـوـلـ الإـلـهـيـ) . وـحاـولـ الإـلـصـاـحـيـوـنـ كـذـلـكـ تـأـكـيدـ الـجـانـبـ الـعـقـائـديـ وـالـأـخـلـاقـيـ عـلـىـ حـسـابـ الـجـانـبـ الشـعـائـريـ أوـ الـقـرـبـانـيـ ، فـهـمـ يـرـوـنـ أـنـ الـيـهـودـيـةـ الـحـاخـامـيـةـ تـدـورـ فـيـ إـطـارـ الشـعـائـرـ الـمـرـتـبـطـةـ بـالـدـوـلـةـ الـيـهـودـيـةـ وـالـهـيـكـلـ ، وـالـتـيـ لـمـ تـعـدـ لـهـاـ أـيـةـ فـعـالـيـةـ أوـ شـرـعـيـةـ . كـمـاـ تـمـ اـسـتـبـعـادـ الـعـنـاصـرـ الـقـومـيـةـ الـمـوـجـوـدـةـ فـيـ الـدـيـنـ الـيـهـودـيـ وـالـتـيـ تـؤـكـدـ قـدـاسـةـ الـيـهـودـ وـانـعـزالـهـمـ عـنـ الـأـمـ الـأـخـرـىـ .

وـمـعـ هـذـاـ ، فـإـنـ الـيـهـودـيـةـ الإـلـصـاـحـيـةـ ، فـيـ مـحاـولـتـهـاـ تـطـوـيرـ الـيـهـودـيـةـ ، اـنـتـهـيـ بـهـاـ الـأـمـرـ إـلـىـ أـنـ خـلـعـتـ النـسـبـيـةـ عـلـىـ كـلـ الـعـقـائـدـ وـنـزـعـتـ الـقـدـاسـةـ عـنـ كـلـ شـيءـ ، أيـ أـنـهـاـ فـيـ مـحاـولـتـهـاـ إـدـخـالـ عـنـصـرـ النـسـبـيـةـ الـإـنـسـانـيـةـ وـالـتـهـرـبـ مـنـ الـحـلـوـلـيـةـ ، سـقـطـتـ

في نسبية تاريخية كاملة بحيث أسقطت كل الشعائر وكل العقائد تقريرًا ، أي أنها هربت من وحدة الوجود الروحية إلى وحدة الوجود المادية .

وفي ضوء منطلقات الفكر اليهودي الإصلاحي ، يمكننا أن ننظر إلى التعديلات التي أدخلها زعماء الحركة الإصلاحية ، على العبادة اليهودية وبعض المفاهيم الدينية ، ومن أهمهم أبراهام جايجر (زعيم الجناح المعتدل) الذي يُشار إليه عادة بلفظة «التقدمي» وديفيد فرايد لندر (زعيم الجناح التوري) الذي يُشار إليه أحياناً بصفة «الليبرالي» . وقام الإصلاحيون بإلغاء الصلوات ذات الطابع القومي اليهودي ، وجعلوا اللغة الصلاة الألمانية لا العبرية (ليتمشوا مع روح العصر والمكان) ثم الإنجليزية في الولايات المتحدة ، وأبطلوا كل الفوارق بين الكهنة واللاويين وبقية اليهود ، وأدخلوا الموسيقى والأناشيد الجماعية ، كما سمحوا باختلاط الجنسين في الصلوات ، ومنعوا تغطية الرأس أثناء الصلاة أو استخدام تأئم الصلاة (تفيلين) ، ولقد تأثروا في ذلك بالصلوات البروتستانتية . وقام بعض الإصلاحيين ببناء بيت للعبادة أطلقوا عليه اسم «الهيكل» ، وكانت تلك أول مرة يُستخدم فيها هذا المصطلح لأنه لم يكن يُطلق إلا على الهيكل الموجود في القدس . ومعنى ذلك أن الإصلاحيين بتسميتهم معبدهم هذه التسمية الجديدة ، كانوا يحاولون تعميق ولاء اليهودي إلى الوطن الذي يعيش فيه ويحاولون نقل الحلول الإلهي من مكان سيعودون إليه في آخر الأيام إلى مكان يرتادونه هذه الأيام . وعلى المستوى الفكري ، أعاد الإصلاحيون تفسير اليهودية على أساس عقلي ، وأعادوا دراسة العهد القديم على أساس علمية (فالعقل أو العلم هو موضع الحلول الإلهي أو المطلق في المنظومات الربوبية) ، ونادوا بأن الدين اليهودي أو العقيدة الموسوية (وهي التسمية الأثيرية لديهم) تستند إلى قيم أخلاقية تشبه قيم الأديان الأخرى . كما ركز الإصلاحيون على الجوهر الأخلاقي للتوراة ، وكذلك الجوهر الأخلاقي لبعض جوانب التلمود ، مهملين التحريرات المختلفة التي ينص عليها القانون اليهودي ، وخصوصاً القوانين المتعلقة بالطعام والكهانة والختان ، وقد سمحوا (مؤخرًا) بترسيم حاخامات إناث . وأنكروا فكرة البعث والجنة والنار ، وأحلوا محلها فكرة خلود الروح . وقد أسقطوا معظم شعائر السبت (ومن بينها تحريم استخدام السيارة بما في ذلك الوصول إلى المعبد) وعدم استعمال أية آلة كهربائية وغير كهربائية (بما في ذلك مكبرات الصوت) . وهم لا يحتفلون به في الوقت الحاضر في يوم السبت

نفسه وإنما يختار أعضاء الأبرشية أي يوم في الأسبوع للجتماع . وتأخذ الشعائر في هذه الحالة شكل صلاة قصيرة وقراءة بعض الفقرات من أي كتاب ، بل حل بعض الكلمات المتقاطعة . ولعل هذا هو الانتصار النهائي لروح العصر . ويقوم أحد المتحدثين بإلقاء محاضرة في أي موضوع وينشدون النشيد الوطني الإسرائيلي (هاتيكفاه) . وقد ازداد التكيف مع روح العصر تطرفاً ، ولذا نجد أن اليهودية الإصلاحية قبلت الشواد الجنسي كيهود ثم رسمت بعض الشواد جنسياً حاخامات ، وأسست للشواد جنسياً معابد إصلاحية معترفاً بها من قبل المؤسسة الإصلاحية . ولعل هذا تعبير عن حلولية موت الإله أو حلولية بدون إله ، وحلولية ما بعد الحداثة حيث تتساوى كل الأمور وتتصبح نسبية . ونحن هنا لا نتحدث عن يهود أو غيرهم وإنما نتحدث عن مجتمع أخذ الإنسان فيه يختفي تدريجياً بعد شحوب الإله وموته .

وقد عَدَّ الإصلاحيون بعض الأفكار الأساسية في الديانة اليهودية ، فمثلاً نادى جايجر بحذف جميع الإشارات إلى خصوصية الشعب اليهودي من كل طقوس الدين وعقيدته وأخلاقه وأدبها ، مطالبًا بالتخلي عن الفكرة الحلولية الخاصة بالشعب اختيار كلية . وقد حاولوا الإبقاء على هذه الفكرة ، مع إعطائهما دلالة أخلاقية عالمية جديدة ، فجعلوا الشعب اليهودي شعباً يحمل رسالته الأخلاقية لينشرها في العالم حتى يستطيع من يشاء أن يؤمن بها . كما يؤكد الإصلاحيون أيضاً أن اليهود شُتّتوا في أطراف الأرض ليحققوا رسالتهم بين البشر ، وأن النفي وسيلة للتقربيهم من الآخرين وليس لعزلهم عنهم .

وأضفى الإصلاحيون على فكرة العودة والماشیح طابعاً إنسانياً إذ رفض مثلوهم ، في مؤتمر بتسبرج ، فكرة العودة الشخصية للماشیح الخالص ، وأحلوا محلها فكرة العصر المشيحاني ، وهي فكرة تربط بين العقيدة المشيحانية وروح العصر . فالعصر المشيحاني هو العصر الذي سيحل فيه السلام والكمال ويأتي الخلاص إلى كل الجنس البشري وينتشر العمران والإصلاح ويتم كل هذا من خلال التقدم العلمي والحضاري . فالفكرة المشيحانية هنا فصلت تماماً عن الشعب اليهودي وعن شخص الماشیح وارتبطت بكل البشر وبالعلم الحديث .

وكان من المنطقي أن تعادي اليهودية الإصلاحية (بنزعتها الاندماجية) الحركة الصهيونية (بنزعتها القومية المشيحانية ، وفي تمجيدها للجيوتو والتلمود ، وفي

حافظها على النطاق الضيق للحلولية اليهودية التقليدية) . وقد عَقد الإصلاحيون عدداً من المؤتمرات للتعبير عن رفضهم للصهيونية . كما أنهم رفضوا وعد بلفور وكل المحاولات السياسية التي تنطلق من فكرة الشعب اليهودي أو التي كانت تخاطب اليهود كما لو كانوا كتلة بشريّة متجانسة لها مصالح مستقلة عن مصلحة الوطن الذي ينت�ون إليه .

وقد ظلت هذه العداوة قائمة زمناً طويلاً في الولايات المتحدة . ولكن اليهود في الغرب جزء لا يتجزأ من المصالح الاقتصادية والسياسية والحضارية لبلادهم ، ومن محياطها التاريخي والحضاري ، وهذه البلاد في مجتمعها تشجع المشروع الصهيوني . ولذا ، لم يكن من الممكن أن تستمر الفكرة أو العقيدة الإصلاحية في مقاومة الواقع الإمبريالي الغربي الممالي للصهيونية . وعلى كل ، فإن اليهودية الإصلاحية جعلت روح العصر النقطة المرجعية والركيزة النهائية ، والإمبريالية جزء أساسي من روح العصر في الغرب . ولكل هذا ، ثُجد أن اليهودية الإصلاحية تخلت بالتدريج عن رؤيتها الليبرالية ، وأخذت في تعديل رؤيتها بشكل يتوااءم مع الرؤية الصهيونية . وبالفعل ، بدأ الإصلاحيون في العودة إلى فكرة القومية اليهودية الصهيونية ، وإلى فكرة الأرض المقدّسة ، فجاء في قرار مؤتمر كولومبوس عام ١٩٣٧ أن فلسطين "أرض مقدّسة بذكرياتنا وآمالنا" إلا أن مصدر قداستها ليس العهد بين الشعب والإله ، وإنما الشعب اليهودي نفسه (وفي هذا اقتراب كبير من اليهودية الحافظة) . وقد حاول الإصلاحيون تبرير هذا التحول بالعودة إلى التراث اليهودي فبيّنوا أن الأنبياء كانوا يؤيدون الاتجاه القومي الديني دون أن يتخلوا عن الدفاع عن الأخلاقيات الإنسانية العالمية ، ودون أن يجدوا أي تناقض بين الموقفين ، أي أن الإصلاحيين تقبّلوا الموقفين : الانعزالي والعالمي دون تساؤل ، وهم في هذا يقتربون من الصهيونية الثقافية ، ومن صهيونية الجماعات اليهودية (أي الصهيونية التوطينية) في استخدامها مقاييس مختلفين : أحدهما يجعل اليهودية قومية بالنسبة للمستوطنين الصهاينة والإسرائيليين ، والآخر يجعلها ديناً وتراثاً روحيّاً بالنسبة للمنفيين الذين لا يريدون مغادرة المنفى بسبب سعادتهم البالغة به !

وقد تزايد النفوذ الصهيوني داخل معسكر اليهودية الإصلاحية إلى درجة أن الاتحاد العالمي لليهودية التقديمية (أي الإصلاحية) عقد مؤتمره السنوي الخامس

عشر في مدينة القدس للمرة الأولى عام ١٩٦٨ ، وذلك عقب عدوان ١٩٦٧ وفي غمرة الحماس القومي الذي اكتسح يهود العالم نتيجة للانتصار الإسرائيلي . وقد تزايدت أيضاً العناصر القومية في الشعائر الإصلاحية (حيث تُتلى الآن بعض الصلوات بالعبرية) ، كما أن الإصلاحيين ينفخون في البوق (شوفار) في المعبد في عيد رأس السنة وأدخلوا بعض العناصر التراثية على الصلوات الأخرى .

وبدأت اليهودية الإصلاحية ، ابتداءً من منتصف السبعينيات ، تساهem بشكل واضح في الحركة الصهيونية ، حيث أصبحت ممثلةً فيها من خلال جمعية أراز (جمعية الصهاينة الإصلاحيين في أمريكا) . وقد انضم الاتحاد العالمي لليهودية التقدمية إلى المنظمة الصهيونية العالمية عام ١٩٧٦ . وانضمت أرتسينيو (الرابطة الدولية للصهاينة الإصلاحيين) باعتبارها حزباً صهيونياً إلى المنظمة . فأصبح لليهودية الإصلاحية كيبيوتيسات ومؤسسات تربوية في إسرائيل وتنظيمات لجمع الأموال لها . وفي عام ١٩٧٦ ، عُقد آخر المؤتمرات الإصلاحية التي أعادت صياغة العقيدة اليهودية في سان فرانسيسكو ، ويلاحظ في قراراته أنها تُحثُّ على استمرار الاتجاه نحو تعميق الْبُعد القومي . فالحقيقة الأساسية في حياة اليهود ، حسب قرارات المؤتمر ، هي الإبادة النازية ، الأمر الذي يدل على الاتجاه نحو تَقْبِل لا هوت موت الإله ولا هوت ما بعد أو شفيتس . وقد بدأ اليهودية الإصلاحية تتوجه نحو محاولة الالتزام ببعض الشعائر اليهودية بقدر الإمكان . ومع هذا أعيد تعريف اليهودي بحيث يصبح « من ولد لأب يهودي أو أم يهودية » ، وأُبيح الزواج المختلط شرط أن يكون الأبناء يهوداً . وقد أدخلت كل هذه التعديلات بسبب الرغبة في البقاء (أي التزاماً بلاهوت البقاء) . وقد صدر ، في عام ١٩٧٥ ، كتاب إصلاحي جديد للصلوات يُسمى بوابات الصلاة ، وهو كتاب تبتداً فيه الاتجاهات الصهيونية السابقة وقد صدر ليحل محل الكتاب الذي صدر في عام ١٩٤١ .

وفي عام ١٩٨٨ أصدرت أرتسينيو بياناً يحدد موقفها من الصهيونية فأكملت أهمية إسرائيل بالنسبة ليهود العالم ولكنها أكدت أيضاً التعددية في حياة اليهود ، وهي تعددية لا تستبعد العلمانية الشاملة ، ولذا فهي تؤيد كلاً من الدياسورا والهجرة الاستيطانية ، وطالب البيان حكومة إسرائيل بأن تبتعد عن القمع الديني

والعنف السياسي ، ودافع عن حقوق العرب ودعا إلى حل سلمي للصراع العربي الإسرائيلي ، مبني على الضمانات والتنازلات المتبادلة .

وقد أُسّست أولى الأبرشيات الإصلاحية في فلسطين عام ١٩٣٦ في حيفا وتل أبيب والقدس . وفي عام ١٩٣٩ ، أُسّست مدرسة ليوبولد في حيفا ، وهي أول مدرسة دينية غير أرثوذك司ية في فلسطين (إسرائيل) . ويُعد معبدها إيل الذي أُسس عام ١٩٥٨ أقدم المعابد الإصلاحية (التقدمية) في إسرائيل . وفي عام ١٩٦٣ أُسّست كلية الاتحاد العربي فرعاً لها في القدس . وقد تم توسيعها عام ١٩٨٧ ، ثم أصبحت المقر الرئيسي للاتحاد العالمي لليهودية التقدمية ، ويوجد قسم بالكلية لإعداد الإسرائيليين ليصبحوا حاخامات إصلاحيين ، وقد تم ترسيم أول حاخام إصلاحي متخرج في المدرسة عام ١٩٨٠ ، ويبلغ عددهم ١٢ عام ١٩٩٢ . وكل حاخامات إسرائيل الإصلاحيين (التقدميين) أعضاء في مجلس الحاخامات التقدميين . ولا يقبل حاخامات إسرائيل الإصلاحيون تعريف اليهودي الذي يقبله حاخامات الولايات المتحدة الإصلاحيون . ويوجد فرع لكلية الاتحاد العبرية في إسرائيل ، وقد انتقل المقر الرئيسي للاتحاد العالمي لليهودية التقدمية إلى القدس عام ١٩٧٢ . وفي عام ١٩٨٠ ، تم تأسيس حركة الشباب الدولية الإصلاحية الصهيونية في القدس وتتبعها عشرة فروع . وتتبع الفرع الإسرائيلي حركة الكشافة الإسرائيلية . ولا يزيد عدد اليهود الإصلاحيين في إسرائيل عن عشرين ألف .

٢ - اليهودية المحافظة

رغم أن اليهودية المحافظة رد فعل لليهودية الإصلاحية ، فإن ثمة عنصراً مشتركاً أساسياً بينهما فهما يهدان إلى حل إشكالية الحلول الإلهي في الشعب اليهودي ومؤسساته القومية .

والمحافظون يودون إحداث تغيير دون الإخلال بروح الفولك اليهودي ، وهذا هو الجوهر اليهودي أو المطلق موضع الحلول الذي ينبغي الحفاظ عليه . وهذه الرغبة في التغيير مع الميل إلى المحافظة تسمان كل أفكارهم . فهم يؤمنون على اختلاف اتجاهاتهم بأن الشعب اليهودي قد تطور عبر تاريخه ، وبأن اليهودية لم تتجمد .

أبداً، وأنها كانت قادرة على التكيف مع اللحظة التاريخية ومع روح العصر ، ولهذا فهي ليست مجموعة ثابتة من العقائد وإنما هي تراث آخر في التطور التاريخي الدائم ، ومن هنا كان إطلاق اسم « اليهودية التاريخية » على هذه المدرسة خصوصاً في أوروبا . ويرى المحافظون أن دراسة اليهودية بشكل تاريخي ونقي (علم اليهودية) هو تطور إيجابي يساعد اليهود على فهم أنفسهم ، كما يساهم في جعل اليهودية نسقاً دينياً خلاقاً كما كان الحال في الماضي . ومع هذا ، فقد وقفت اليهودية المحافظة ضد التيار اليهودي الإصلاحي ، فنادي زكريا فرانكل ، شأنه في هذا شأن هيرش الأرثوذكسي وشأن الصهاينة ، بأن يكون أي تغيير أو تطوير لليهودية نابعاً لا من خارج الروح اليهودية وإنما من أعماقها ، أي من روح الشعب العضوي (المطلق الجديد) . ورغم أن فرانكل والمحافظين كانوا من المؤمنين بأن التوراة أو الشريعة الشفوية خرافية ابتدعها الحاخامات لكي يضفوا مسحة من الشرعية على ما أقره الإجماع الشعبي ، ورغم أنهم رأوا أيضاً أن التراث الديني اليهودي ليس مرسلاً من الإله ، فإنهم لم يتخدوا موقفاً نقياً من التوراة أو التراث اليهودي كما فعل الإصلاحيون ، لأنهما كلاهما تعبير عن الشعب اليهودي وعقريته . وقد اقترح المحافظون ، وبالذات الحاخام الصهيوني شختر عدم ترك الأمور في أيدي قلة من رجال الدين يقومون بتفسير الشريعة كيفما شاءوا ، ودعا إلى وجوب أن يقوم متكلمون يمثلون الشعب اليهودي وينطقون باسم الجماعة . وتحاول هذه الجماعة التي تمثل كل أو عموم إسرائيل (بالعبرية : كلال يسرائيل) أن تكتشف اليهودية بدراسة التراث والتقاليد والأدب اليهودي .

وتطبيقاً لهذا الموقف الوسط بين اليهودية الإصلاحية والأرثوذك司ية ، يؤمن المحافظون بأن الأمل في العودة إلى صهيون فكرة أثيرية لدى اليهودي لابد من المحافظة عليها . ومع هذا ، لا يتنافي هذا الأمل ، بآية حال ، مع الولاء للوطن الذي يعيش فيه اليهودي . وهم لا يؤمنون بالعودة الفعلية والشخصية للماشيّح ، ويطرحون بدلاً منها فكرة العصر المшиحي الذي سيتحقق بالتدريج . ويصبح تأسيس الدولة اليهودية ، داخل هذا الإطار ، خطوة أولى نحو تحقيق هذا العصر . ويرى المحافظون أن تكون الصلوات اليهودية بالعبرية ، وإن كانوا لا يمانعون في أن تُتلى باللغة المحلية إذا لزم الأمر . ويفكـدـ المحافظون أن الشريعة ملزمة لليهودي ، وبالتالي ضرورية للحفاظ على شعائر اليهودية ، فـمـثـلـ اليهودية العليا يتم تفسيرها

من خلال الشريعة . كما أن اليهودية تدور حول الأوامر والنواهي التي تغطي السلوك الإنساني وتحكم العلاقة بين اليهود من جهة ، وبينهم وبين الإله من جهة أخرى . ولكن ، مع هذا ، لابد أن تظل الشريعة مرنة مرونة كافية بحيث تترك مجالاً للتغيير والتعددية الفكرية التي تجعلها قادرة على مواكبة العصر الحديث ، وعلى سد حاجة الإنسان اليهودي الحديث . ولذا ، لابد أن تتسم عملية تفسير الشريعة بقدر عال من الإبداع . ويتبين هذا الموقف في أنهم لا يمانعون في إدخال بعض التعديلات على الشعائر الدينية (فيقيمون بعض طقوس السبت) ، ولكنهم يسمحون باختلاط الجنسين (وأصبحت النساء جزءاً من النصاب [منيان] المطلوب لإقامة صلاة الجماعة)، بل يسمحون بأن تكون هناك من الإناث حاخامات ومنشدات (حزان) . وقد أبقو على الحستان وقوانين الطعام ، وإن كانوا قد دخلوا بعض التعديلات عليها . وهم يقيمون الصلوات بشال الصلاة (طاليت) وتمائم الصلاة (تفيلين) .

ورغم تماثل الجذور الفكرية لليهودية الإصلاحية والمحافظة ، فإن تشابه اليهودية المحافظة بناءً مع اليهودية الأرثوذكسية واضح وقوي . بل إن الفروق بينهما طفيفة وغير جوهرية ، فكلتا هما تدور في إطار الخلولية التقليدية دون أن توسع نطاقها لتضم غير اليهود (كما فعلت اليهودية الإصلاحية) . ولذا ، ثجد أن كلاً من اليهودية المحافظة واليهودية الأرثوذكسية تؤمنان بالثالوث الخلولي : الإله (أو التوراة) ، والشعب ، والأرض . وعلى حين يؤكّد الأرثوذكس أهمية الإله والوحى والتوراة ، ثجد المحافظين يبرّزون أهمية الشعب وترايه و تاريخه ، أي أن الاختلاف ينصرف إلى تأكيد أحد عناصر الثالوث الخلولي على حساب عنصر آخر . ويُضفي كلاً الفريقين حالة من القداسة على حياة اليهود وتاريخهم ، وهي قداسة يرجعها الأرثوذكس إلى أصول إلهية ويرجعها المحافظون إلى أصول قومية أو إلى روح الشعب (وكلال يسرائيل هي في الواقع الفولك التي يتحدث عنها الفكر الرومانسي الألماني) ، ويصبح الدين اليهودي فلكلور الشعب اليهودي المعبر عن هويته الإثنية وسر بقائه ، كما أنه يكتسب أهميته بمقدار مساهمته في الحفاظ على هذا الشعب المقدس .

وقد عادت اليهودية المحافظة ، بتحويلها الشعب إلى مصدر للإطلاق وموضع للقداسة ، إلى واحدة من أهم الطبقات في التركيب الجيولوجي اليهودي ، وهي

الطبقة الحلوية التي أدى إلى واقع أن الإله لم يتمتع قط بالمركزية التي يتمتع بها داخل الأنساق الدينية التوحيدية ، فهو يمترز بالشعب والأرض ويتساوى معهما . وتغيل الكفة داخل النسق الحلوى بالتدرج لصالح الشعب على حساب الإله حتى يصبح الشعب وتراته (لا الإله) مصدر القدسية ، وبالتالي يصبح جوهر اليهودية بقاء اليهود ، ويظهر داخل اليهودية لاهوت البقاء أو لاهوت ما بعد أوشفيتس .

وقد عرَّفت اليهودية المحافظة أهدافها بأنها الإصرار على وحدة إسرائيل « الكاثوليكية » العالمية ، والإصرار على الحفاظ على استمرار التراث اليهودي والاهتمام بالدراسات اليهودية . فهذا هو الجوهر ، أما ما عدا ذلك من عبادات وعقائد ، فإنه يظهر بشكل عضوي وتلقائي متجدد .

ورغم أن المذهب المسيطرب على الحياة الدينية في إسرائيل هو اليهودية الأرثوذك司ية إلا أننا نرى أن الفكر الصهيوني يشبه في كثير من الوجه فكر اليهودية المحافظة ، فكلما يتبعى مقولات اليهودية الأرثوذك司ية الحلوية بعد أن علمتها كلّ منها على طريقته . فب بينما يؤكّد الأرثوذوكس الأصول المقدّسة الربانية للتراث اليهودي ، يرى المحافظون أنه تراث مقدس ، ولا يعنيون كثيراً بمصدر القدسية . وعلى حين يلغى الأرثوذوكس التاريخ الزمني كلبة ولا يدورون إلا داخل إطار التاريخ المقدس ، ثجد أن المحافظين يتحدثون عن تاريخ يهودي لا يختلف كثيراً عن التاريخ المقدس . وبينما يصر الأرثوذوكس على مقوله أن الدين اليهودي هو القومية اليهودية وعلى أن القومية هي الدين ، يحاول المحافظون تقويه هذه الحقيقة والتخفيف من حدتها بعض الشيء بالحديث عن الروح المقدّسة للشعب ، وجعلها مصدر القدسية بدلاً من الإله ، وكذلك بالحديث عن اليهودية كخلط من العقيدة الدينية والهوية الإثنية ، وهو خليط أخذ يتطور منذ القدم حتى الوقت الحاضر . وهكذا ، فإننا نجد أن اليهودية المحافظة هي الحلولية البهودية التقليدية ، بعد أن تم ترجيح كفة الجانب البشري على الجانب الإلهي ، وهذا هو جوهر الصهيونية أيضاً .

وقد ارتبطت اليهودية المحافظة بالصهيونية منذ البداية ، ويمكننا أن نعد الصهيونية الثقافية ، التي كان يدعو لها آحاد هعام ، ضرباً من ضروب اليهودية المحافظة (وكذا تجديدية كابلان وحوارية بوير) . وبالفعل ، تبنت البهودية المحافظة رؤية آحاد هعام للجماعات اليهودية في العالم (الدياسبورة) ورفضت المفهوم

الصهيوني الخاص بضرورة نفي الدياسبورا (أي محوها أو استغلالها) ، وطالبت باحترامها واحترام تراثها التاريخي . وكل ما يجمع هؤلاء المفكرين هو إيمانهم باختلاف التاريخ اليهودي عن تاريخ بقية الشعوب ، فهو تاريخ مقدس يتضمن عناصر دينية ، فهو موضع الحلول الإلهي ، كما أن الدين اليهودي دين تاريخي يتضمن عناصر دنيوية (والواقع أن تداخل المقدس والدنيوي هو أساس بنية الفكر الصهيوني) .

ولعل ذلك التقابل الواضح بين اليهودية الحافظة والصهيونية واضح تماماً في موقف زكريا فرانكل وبين جوريون مما يُسمى «تراث اليهودي» . ففرانكل يرى أن الدين اليهودي هو التعبير الديني عن روح الأمة اليهودية ، وهو منزلة إجماعها الشعبي العام . ولذا ، يجب ألا تشار مسألة ما إذا كان القانون من أصل سماوي أو أرضي ، فمادام القانون يعبر عن هذا الإجماع الشعبي العام فيجب أن يبقى ساري المفعول . ويشبهه هذا الموقف ، في كثير من الوجوه ، موقف بن جوريون من أسطورة العهد الذي قطعه الله على نفسه بمنح اليهود أرض كنعان ، فبالنسبة لبن جوريون لا يهم إن كانت هذه الواقعة حقيقة إلهية أم لا ، فالمهم هو أن تظل هذه الأسطورة مفروسة في الوجدان اليهودي ، ولذا يجب أن تبقى سارية المفعول حتى بعد أن ثبت أن الوعيد المقطوع مجرد أسطورة شعبية ليس لها أي مصدر إلهي . وقد بدأت اليهودية الحافظة تلعب دوراً تنظيمياً نشيطاً داخل الحركة الصهيونية ، وتأسست منظمة محافظة صهيونية هي منظمة مركز (اختصار عبارة «Movement to Reaffirm Conservative Zionism ، توري أفيرم كونserفاتيف زايونيزم أي «حركة إعادة تأكيد الصهيونية الحافظة») .

وقد أصدرت الجمعية الأمريكية للحاخامات قراراً للمعابد اليهودية الحافظة بالانضمام إلى المنظمة الصهيونية العالمية بشكل جماعي ، ويلاحظ أن اليهودية الحافظة بدأت تحقق ثجاحاً ملحوظاً في إسرائيل في الوقت الحاضر . وقد أُسّست أول أبرشية محافظة في فلسطين عام ١٩٣٦ . ولكن حتى أوائل السبعينيات ، لم يكن في إسرائيل سوى عدة معابد يهودية محافظة ، ومركز للطلبة اليهود الأمريكيين ، نيفيه شختر ، وهو يُعد الفرع الصيفي لكلية اللاهوت اليهودية . ولكن ، بعد ذلك التاريخ ، بدأت محاولات جادة لتوسيع نطاق الحركة ليشمل التجمع الصهيوني كله . وباءت المحاولات بالفشل حتى أوائل الثمانينيات ، حين ظهرت

حركة ماسورتي (أي التقليدية) التي أُسّست عام ١٩٨٤ معاهدها الأساسية ومنها المعهد العالي للدراسات اليهودية الذي يُعد الدارسين الإسرائيлиين ليعملوا حاخامات محافظين، وحركة نوام الشبابية ومعسكرات صيفية ومدارس وكيبوتس وموشاف وفرق نحال . ويتكوين هيكل حركة ماسورتي التنظيمي من معبد إسرائيل المتحدة ويضم قيادات الأبرشيات، ومجمع إسرائيل الحاخامي ويضم حوالي ١٠٠ حاخامي ماسورتي . ويبلغ عدد أعضاء الحركة حوالي عشرة آلاف . ويوجد الآن نحو أربعين أبرشية محافظة . كما تجحت الحركة في تأسيس مدارس تالي ، وهي مدارس تعكس أيديولوجيا الحركة . ولا تتلقى هذه المدارس أي عون من الحكومة الإسرائيلية بسبب عدم اعتراف المؤسسة الأرثوذك司ية بها .

وقد أصدرت حركة ماسورتي بياناً رسمياً عام ١٩٨٦ يحدد موقفها . وبعد عامين ، أصدر المجلس الحاخامي بياناً أكثر شمولاً يعكس اهتمامات الحركة في الولايات المتحدة . وقد لوحظ وجود اختلافات مهمة بين ما جاء في هذا البيان وموقف حركة الماسورتي ، وخصوصاً فيما يتعلق بدور إسرائيل بين يهود العالم .

٣ – اليهودية الأرثوذك司ية

اليهودية الأرثوذك司ية هي اليهودية الحاخامية التلمودية وهي أيضاً الأصولية اليهودية ، وينطلق هيرش والأرثوذكس من نقطة ثبات ميتافيزيقية تقع خارج نطاق الطبيعة ، وهي أن الإله أوحى إلى موسى التوراة فوق جبل سيناء ، وتمثل هذه النقطة بالنسبة إليهم حقيقة لا يمكن مناقشتها أو الجدال فيها ، وهي مسألة ثابتة ذات معنى عميق وثبتت يلغى أي معنى آخر يختلف عنها ، فهي ركيزة النسق الأساسية ومرجعيته المتتجاوزة .

والتوراة ، حسب تصوّر الأرثوذكس ، كلام الإله كتبها حرفاً حرفاً وأوحى بها إلى موسى ، وهذه حقيقة يؤمن بها المؤمن إيمانه بأن الله خلق العالم من العدم ، والمؤمن لا يعرف كيف خلق الله العالم ولا كيف كتب التوراة وأوحاهها . وهناك في صفوف الأرثوذكس من يعطي دوراً للعنصر الذاتي في التجربة الدينية ولكنهم جميعاً يؤمنون بعقيدة الوحي الإلهي وأن التوراة منزلة من الإله ، ولذا فهي وحدتها مصدر الشريعة ، قيمها خالدة أزلية تنطبق على كل العصور . ولو لا التوراة لما تحقق

وجود جماعة يسraelيل ، وعلى الشعب اليهودي اتباع هذا الكتاب المقدس إلى أن يأتي وحي جديد . وقد نادى الأرثوذكس بعدم التغيير أو التبدل أو التطوير، لأن عقل الإنسان ضعيف لا يمكنه أن يعلو على ما أرسله الإله ، ولأن التطور سيؤدي حتماً باليهودية .

ولكنهم مع هذا يختلفون حول تحديد أي أجزاء من التوراة هي التي أوحى بها الإله مباشرة . وثمة إجماع على أن أسفار موسى الخمسة مرسلة من الإله ، وبعضهم يوسع نطاق القدسية لتشمل كتباً أخرى من العهد القديم وهناك من يوسع نطاق القدسية ليشمل كل كتب الشريعة الشفوية .

وهناك من الأرثوذكس من يميل نحو تفسير التوراة تفسيراً حرفيأً ، ومن يؤمن بأن التاريخ الذي ورد فيها تاريخ حقيقي بالمفهوم المادي ، ولكن هناك من يرى أن ما ورد في التوراة ليس حقائق تاريخية ، وإنما فلسفة تاريخ (ولذا نجد أن هناك من الأرثوذكس من يصر على أن عمر الأرض هو كما ورد في العهد القديم) . ولكن هناك من لا يجد أية صعوبة في قبول الحقائق العلمية (الحاخام مناحم منديل كاشير) .

أما فيما يتصل بالأجزاء القانونية (التشريعية) فهناك من الأرثوذكس من يرى أنها تشريعات أزلية ثابتة ، ولكن هناك فريق يشير إلى أن التوراة الشفوية نفسها دليل على أن بعض القوانين الدينية ليس أزلية .

ولكن الأرثوذكس لا يؤمنون بالتوراة وحدها باعتبارها مستودع الكشف الإلهي ، وإنما يؤمنون أيضاً بالتوراة (أو الشريعة) الشفوية . وبكل كتب اليهودية الحاخامية ، مثل التلمود والشولحان عاروخ بل وكتب القبالة ، أو على الأقل التفسيرات القبالية ، وهي التفسيرات التي همّشت النص التوراتي باعتبار أن الشريعة الشفوية تجعل الاجتهاد البشري (الحاخام) أكثر أهمية وإلزاماً من النص الإلهي .

ويعتقد الأرثوذكس اعتقاداً حرفيأً بصحة العقائد اليهودية الحلولية ، مثل : الإيمان بالعودة الشخصية للمسيح ، وبالعودة إلى فلسطين ، وبأن اليهود هم الشعب المختار الذي يجب أن يعيش منعزلاً عن الناس لتحقيق رسالته . وبسبب قداسة هذا الشعب ، نجد أن الأرثوذكس يعارضون أية أنشطة تبشرية ، فالاختيار

هو نتيجة للحلول الإلهي ، ومن ثم فهو أمر يُتوارث . ومن هنا ، تتمسك اليهودية الأرثوذكسية بالتعريف الحاخامي لليهودي باعتبار أنه من ولد لأم يهودية أو تهود حسب الشريعة أي على يد حاخام أرثوذكسي . وتعبر الحلولية عن نفسها دائمًا من خلال تزايد مفرط في الشعائر التي تفصل الشعب المقدس عن الأغيار . واليهودية الأرثوذكسية تؤمن بأن الأوامر والتواهي ملزمة لليهودي الذي يجب أن يعيده صياغة حياته بحيث تجسد هذه الأوامر والتواهي ، وهي في إيمانها هذا لا تقبل أي تمييز بين الشرائع الخاصة بالعقائد وتلك الخاصة بالشعائر . ومن هنا التزامها الكامل بالتسلق بالشعائر ، فبعض الأرثوذكس يطالبون بعدم تغيير الطريقة التي يرتدي بها اليهود ملابسهم أو يقصون شعرهم . ولا تزال النساء في بعض الفرق الأرثوذكسية يحلقن شعورهن تماماً عند الزواج ويلبسن شعراً مستعاراً بدلاً منه . وهناك من يستخدمون العبرية في صلواتهم ، ولا يسمحون باختلاط الجنسين في العبادات .

ويحاول الأرثوذكس (كمجموعة دينية) الانفصال عن بقية الفرق اليهودية الأخرى حتى يمكنهم الحفاظ على جوهر اليهودية الحقيقية دون أن تشوبه شوائب . ولكن هذا الموقف يتفاوت فهناك من يبغض غير الأرثوذكس ولكن هناك من يطالب بحبهم والدفاع عنهم .

ويمكن تفسير الفكر اليهودي الأرثوذكسي تفسيراً معادياً تماماً للصهيونية . فالإيمان بالعودة الشخصية للماشي يعني الانتظار في صبر وأنة إلى أن يأذن الإله بالعودة . وعلى المؤمن الحق أن يقبل المنفي ، إما عقاباً على ذنوب يسرائيل أو كجزء من التكليف الإلهي ، وعليه لا يحاول التعجيل بالنهاية (دحيكت هاكتس) . وقد كانت الفرق الأرثوذكسية معادية للصهيونية في بادئ الأمر . ولكن هذه الأرثوذكسية تمت صهيونتها على يد بعض الحاخamas الأرثوذكس ، وخصوصاً الحاخام كوك (ومن قبله كاليسير والقلعي) . وكانت متتالية الخلاص في الماضي تأخذ الشكل التالي :

نفي - انتظار - عودة الشعب

أما الآن ، فإن المتتالية الجديدة المقترحة هي :

نفي – عودة أعداد من اليهود للتمهيد لوصول الماشيّح – عودة الماشيّح مع بقية الشعب .

ومن هنا ، تمت صهيونة الأرثوذكسيّة (وخصوصاً بعد عام ١٩٩٧) ، ولم يبق سوى فريق الناطوري كارتا الذي يدافع عن الرؤية الأرثوذكسيّة التقليديّة قبل صهيونتها . وعملية الصهيونة هذه لبست أمراً غريباً ، فالرؤيّة الخلوليّة ، في إحدى مراحلها ، تخلع القدس على الشعب وإرادته . ولذا تبهر الإرادة الإلهيّة وتتراجع ويصبح من حق اليهود أن يتعلّقوا بالنهاية . وعلى كلّ ، فإن المنظومة القباليّة التي يؤمن بها الأرثوذكس تجعل توحُّد الذات الإلهيّة واكتمالها مرهوناً بأفعال اليهود ومدى إقامتهم الشعائر !

وتستمدُّ اليهوديّة الأرثوذكسيّة قوتها من قوة اليهوديّة الأرثوذكسيّة في إسرائيل ومؤسساتها ، فهم الفريق الوحيد المعترف به في الدولة الصهيونيّة . ومعظم اليهود الأرثوذكس أعضاء في جمعية أجودات إسرائيل ، أو في حركة مزراحي . والأولى لا تؤيد الصهيونية وغير ممثّلة في المنظمة الصهيونيّة العالميّة ، ومع هذا فلها أحزابها في إسرائيل ، وممثلوها في الكنيست . أما المزراحي ، فقد ساهم منذ البداية في النشاط الصهيوني . وقد كشف النقاب مؤخراً عن أن هرتزل (اللاديني) كان وراء تأسيس حركة المزراحي ، وأنه دفع نفقات مؤتمر المزراحي الأول من جيبه . ومن أهم الشخصيات اليهوديّة الأرثوذكسيّة ، سولوفايتسيك رئيس شرف حركة مزراحي ، وإليعازر برковيتس الذي يرى أن إنشاء دولة إسرائيل له دلالات أخرى وعميقه .

وتسيطر اليهوديّة الأرثوذكسيّة على الحياة الدينية في إسرائيل ، فهي تسيطر على دار الحاخامية الرئيسيّة ، وعلى وزارة الشؤون الدينية ، وعلى الأحزاب الدينية ، مثل : مزراحي ، وعمال مزراحي ، وأجودات إسرائيل ، وعمال أجودات إسرائيل ، وساش وديجييل هاتوراه والمفادال . وهي أحزاب تمارس سلطة لا تتناسب بائنة حال مع أحجامها الحقيقيّة ، وذلك لأنّ الحزب الحاكم يدخلها الائتلافات الوزاريّة التي تمكّنه من البقاء في الحكم . وهو يقدم لها ، نظير ذلك ، كثيراً من التنازلات التي تطالب بها . ومن أهم هذه التنازلات ، عدم اعتراف الدولة حتى الآن بالزيجات المختلطة ، أو الزيجات التي لم يشرف على عقدها حاخمات أرثوذكس ، وتركها تعريف من هو اليهودي في يد المؤسسة الأرثوذكسيّة .

ولا تعترف المؤسسة الدينية الأرثوذك司ية في إسرائيل باليهودية الإصلاحية أو المحافظة، ولا بحاخاماتها، ولا بالزيجات التي يعقدونها ، ولا بمراسم التهود التي يقومون بها ، فهم يجعلونها سهلة يسيرة على عكس طقوس التهود الأرثوذك司ية . وتشير هذه القضية من آونة إلى أخرى ، حينما يطرح قانون العودة للنقاش ، فهو القانون الذي يتضمن محاولة تعريف الهوية اليهودية . إذ تحاول المؤسسة الأرثوذك司ية أن تضيق تعديلاً (عبارة "من تهود حسب الشريعة" ، أي على يد حاخام أرثوذكسي) وهو ما يعني استبعاد الحاخamas الإصلاحيين والمحافظين وكل اليهود الذين تهودوا على أيديهم . ويدعو زعماء اليهودية الإصلاحية إلى أن تكون المساعدات التي تُخصص للمؤسسات الإصلاحية في إسرائيل متناسبة مع حجم تبرعات اليهود الإصلاحيين ، إذ أن معظم التبرعات يدفعها يهود غير أرثوذكس ، ومع هذا يصب معظمها في المؤسسات الأرثوذك司ية . وقد بدأ بعض زعماء اليهودية الإصلاحية ، مثل ألكسندر شندرلر ، في محاولة الاحتفاظ بمسافة بينهم وبين الدولة الصهيونية ، وخصوصاً بعد حادثة بولارد وبعد الانفلاحة . وهم يؤكدون مركزية الدياسبورة (الجماعات اليهودية خارج فلسطين) مقابل مركزية إسرائيل ، كما يحاولون تغليب الجانب الديني على الجانب القومي . وتوزع دار الحاخامية منشورات تحذر الناس من أداء الصلوات في المعابد التابعة لحركة ماسورتي وتحبّرهم أن مثل هذا الأمر يُعدُّ محراً .

من هو اليهودي عام ١٩٩٨؟

يرفض الأرثوذكس كلاً من الإصلاحيين والمحافظين ويُطلق على موقف الرفض هذا أنه موقف «أصولي». وكلمة «أصولية» هي ترجمة حرفية لكلمة Fundamentalism، وهي مأخوذة من الكلمة Fandament التي تعني «الأساس» أو «الأصل» (من اللغة اللاتينية، الكلمة «فاندامنت» Fundamentum تعني «أساس»).

وكلمة «أصولية» الإنجليزية استُخدمت أول ما استُخدمت في سياق مسيحي وتعني «حركة بروتستانتية أمريكية» تهدف إلى إعادة تأكيد بعض ما يتصور أنه عقائد ثابتة وأصلية مسيحية مثل قدسية الكتاب المقدس وأنه صائب تماماً (بل قد ارتبطت الكلمة «أصولية» بالتفصير الحرفي والماشـر لنصوص الكتاب المقدس)، والإيمان بالمعجزات (وخصوصاً الحمل بلا دنس) والبعث الحسدي للمسيح. ثم طبقت هذه الكلمة على الاتجاهات التجددية في الإسلام ثم الحركات الدينية المتطرفة في اليهودية. و«الأصوليات» الثلاث مختلفة تمام الاختلاف في مضمونها واتجاهها.

وعبارة «الأصولية اليهودية» تُستخدم في الخطاب السياسي العربي والغربي للإشارة إلى شكل من أشكال التطرف الديني عادةً «الأرثوذكسي» (وتترجم الكلمة «أصولي» أحياناً إلى الكلمة «متزمت» أو «متشدد» أو «متطرف» مما يعني تراويف كل هذه المصطلحات مع لفظ «أرثوذكسي»). وهذا خلل ناجم عن تطبيق مصطلح ديني، ثم اقتراضه من نسق ديني ما ثم تطبيقه على نسق ديني آخر).

ويرى مستخدمو هذا المصطلح أن هذه الأصولية تعود إلى الحاخام أبراهام كوك (الذي كان يشغل منصب الحاخام الإشكنازي في فلسطين) وأنها مستمرة حتى

هذه الأيام (على يد ابنه الحاخام تسيفي كوك وغيره) ، بل إنها آخذة في التنامي . فقد بلغ عدد أعضاء الكنيست «الأصوليين» ، أي مثلي الأحزاب الدينية (المقدار وديجيل هاتوراه وشاس) ٢٣ عضواً (مقابل ١٦ عضواً في الكنيست السابق) من مجموع ١٢٠ عضواً . وتُعد هذه أكبر نسبة في تاريخ إسرائيل السياسي .

وهذا التيار الديني أصبح بمقدوره التحكم في رئاسة الحكومة وإسقاط الحكومات . ولا يمكن تشكيل أية حكومة دون مشاركته (رغم أن أعضاء هذا التيار غير معنيين بالسياسة بالمعنى الضيق للكلمة فهم يهتمون بميزانيتهم بالدرجة الأولى) وهم سيأثرون بوزارات المستقبل (التعليم - الإسكان - الأرضي - المهاجرون - الأديان) ويتحكمون في وزارة حيوية مثل وزارة التعليم ، ويُقال إنهم أصبح لهم نفوذ كبير داخل الجيش . فهناك حاخامية عسكرية تتولى مهمة التوجيه الفكري والديني داخل القوات المسلحة ، وهي تباشر كل شؤون الأحوال الشخصية المتعلقة بالعسكريين ، وتشرف على المدارس العسكرية الدينية ، وتخرج أجبياً مسكونة بالكراهية المطلقة للعرب ، كما تتولى الحاخامية إصدار الفتوى التي تضفي القدسية على الممارسات والجرائم التي يرتكبها الجنود ضد العرب . وقد أوصل هذا التغلغل داخل الجيش عدداً غير قليل من الضباط الأرثوذكس إلى مراتب علياً .

وفي استطلاع أجرته صحيفة يديعوت أحرونوت قال ٤٧٪ من الإسرائيليين أنهم يتوقعون حدوث حربأهلية بين الم الدينين والعلمانيين اليهود (وقد تكون هذه مبالغة ، ولكنها «مبالغة دالة» إن صح التعبير) . وهي تقف الآن بمنتهى الحزم والشراسة ضد أي انسحاب من الضفة والجلolan ومع الاستيطان وطرد العرب ، وهم مستعدون للذهاب في سبيل الدفاع عن موقفهم هذا إلى أبعد مدى . ولا تنس أنهم يعتبرون باروخ جولدشتاين منفذ مجررة الحرم الإبراهيمي قديساً ومثلاً أعلى يجب الاحتذاء به .

والأطروحة الأساسية لهذه «الأصولية» - حسب تصور من يستخدمون هذا المصطلح - كما يلي :

١ - إنشاء دولة إسرائيل هو تجسيد للحلم التوراتي اليهودي القديم ، رغم أن الحركة الصهيونية نفسها ، المؤسسة للكيان الصهيوني ، لم تكن حركة دينية ، وإنما

كانت أيديولوجية سياسية علمانية ، ورغم أن الآباء المؤسسين (الحرس القديم) مثل بن جوريون وإيجال آلون ، كانوا ملحدين في حياتهم ، علمانيين في طرق تفكيرهم . ويسمى كوك هذه الظاهرة (وعد ديني يتحقق على يد علمانيين) «الإنسطارية» . ولذا بينما يرفض الأصوليون هذا الطابع العلماني للدولة ، فإنهم يقبلون بفكرة الدولة اليهودية نفسها (على عكس ناطوري كارتا التي ترفض فكرة الدولة من أساسها) .

٢ - لا يمكن الثقة في الأغيار ، بأي شكل ، وأرض إسرائيل الكبرى هي أرض يهودية ، ولابد للدولة اليهودية أن تعتمد على نفسها وحسب (رغم كل المساعدات الخارجية التي تصب فيها) . ولذا لا يفهم أعضاء هذا اليمين الديني الموازنات الدولية حق الفهم) . وهم يتصورون أنه لا يمكن عقد سلام مع العرب ، بل يجب طردتهم أو تهجيرهم .

وهذه المقولات ليست بالضرورة مقولات دينية ويمكن لأي حزب علماني أن يتبعها . وبالفعل ثجد أن اليمين (المؤيد لنتنياهو) يضم في صفوفه متدينين قوميين وعلمانيين . فهو يضم (كما أسلفنا) أحزاب دينية مثل حزب المقدال وشاس وديجيل هاتوراه ، ولكنه يضم أيضاً أحزاب موليديت وكاخ وإسرائيل بعالیاه وتسموميت . وحزب إسرائيل بعالیاه هو حزب الصهاينة المرتزقة ، أي المهاجرين السوفييت الراغبون في تخسين مستواهم المعيشي ، أما حزب تسموميت ، فهو حزب صهيوني لا ديني . ولا يمكن الحديث عن نتنياهو أو عن جيله بأسره ، باعتباره متديناً . ولكل هذا ثجد صعوبة بالغة في استخدام هذا المصطلح ، نظراً لعدم دلالته وتفسيريته .

ولابد من القول بأن المخصوصية الجيولوجية التراكمية لليهودية تبرر الشيء وعكسه ، فهي على سبيل المثال تبرر الاستيلاء على الأرض وعلى إعادةتها للعرب (في سبيل الحفاظ على النفس اليهودية "بيكوح نيفيش") . كما يمكن القول بأن اليهودية الخامامية حاولت ، بشكل عام ، محاصرة النزعة المشيخانية ولذا جعلتها منوطبة بمشيئة الإله ، والعودة الشخصية الفعلية (دون انتظار أوامر الإله وتعاليمه) يُعد ارتكاباً لخطيئة «دحيكات هاكتس» ، أي «التعجيز بالنهاية» ولذا فالأرثوذكسيّة تبرر «العودة» وتحرمها في آن واحد . ورغم التأييد الأرثوذكسي لل والاستيلاء على الأرض فقد أحجم الخام شنيرسون عن إتمام رحلته إلى فلسطين

قائلاً : "في السماء شهودي ، لو كان الأمر بيدي لحثشت الخطى إلى هناك [إلى فلسطين] كالسهم حينما يخرج من قوسه" . ولكن لم يفعل ، خشية أن يفسر الصهاينة رحلته هذه على أنها قبول لرؤيتهم ، كما أن الحاخام هيرش ، زعيم الناطوري كارتا ، امتنع عن زيارة حائط المبكى ، رغم أنه كان يعيش على بُعد خطوات منه .

ويلاحظ أن اليهودية الإصلاحية والمحافظة بدأت تصل إلى إسرائيل وقد تزايد عدد التابعين لها ، هذا في الوقت الذي وصل فيه عدد الإصلاحيين والمحافظين المتدينين في الولايات المتحدة حوالي ٨٥٪ من عدد يهود الولايات المتحدة المتدينين . ويجب أن نذكر أن اليهود الملحدين (وكمثال من المتدينين) في الولايات المتحدة يصرون على فصل الدين عن الدولة (متبعين في ذلك مجتمعهم منادين بذلك باعتبارهم أعضاء أقلية يرون أن ذلك في مصلحتهم) ، أما اليهود الملحدون في إسرائيل فهم لا يكتترثون أساساً بالدين (وهم أعضاء أغلبية) ولذا فهم لا يمانعون في أن يسيطر الأرثوذكس على جميع مناحي الحياة (وخصوصاً أن مثل هذا الاستعراض الديني يزيد من شرعية الدولة وشرعية الاستيلاء على الأرضي) .

وقد أدى هذا الوضع إلى فقدان الاتزان على مستوى يهود العالم . فبينما ترى أغلبية الدياسبورا (التي تهيمن على المنظمة الصهيونية) ضرورة فصل الدين عن الدولة ، تحاول المؤسسة الأرثوذكسية في إسرائيل أن يلعب الدين دوراً أساسياً في حياة الفرد الخاصة وال العامة بل أن يتحكم الدين في الحياة الخاصة للمواطنين ، وأن تقوم هي بتعريف من هو اليهودي والقوانين الخاصة بالعلاقة الدينية بين الفرد والمجتمع . لكل هذا لا تعترف المؤسسة الأرثوذكسية - على سبيل المثال - بمراسم التهود التي يجريها حاخامتات إصلاحون أو محافظون ، كما لا تعترف بمراسم الزواج التي يحررها (وذلك يعني ، في الواقع الأمر ، أن كثيراً من الزيجات التي تمت خارج إسرائيل «غير شرعية» وأن الأطفال ، ثمرة مثل هذه الزيجات ، مامزير ، أي غير شرعيين) .

وقد جرى تمرير قانون في الكنيست يلغى الاعتراف بعقود الزواج التي يجريها الحاخامتات التابعون للتيار الإصلاحي والمحافظ . ومع أن القانون مر في المرحلة الأولى (من أربع مراحل) ، فقد غضب اليهود الإصلاحيون والمحافظون بشدة وهددوا علانية بقطع المساعدات والتبرعات عن إسرائيل . فاتصل نتنياهو شخصياً

برؤسائهم ودعاهم للقاء في مكتبه (في القدس) . وأخبرهم أن تمرير القانون في القراءة التمهيدية لا يعني أنه سينجح . وقال إنه قرر إقامة لجنة تضم المسؤولين من كل التيارات الدينية في إسرائيل لتباحث الموضوع وتتوصل إلى قرارات وحلول ترضي كل الأطراف .

وبالفعل تم تشكيل لجنة يرأسها وزير المالية يعقوب نعeman لإنشاء محكمة تفصل في حالات اعتناق الديانة اليهودية داخل إسرائيل . وقد وعد زعماء الإصلاح والمحافظة بالتوقف عن الهجوم على الحكومة الصهيونية أو القيام بأية إجراءات قبل أن تنهي اللجنة عملها ، وكان نعeman قد اقترح إنشاء محكمة مشتركة تضم ممثلين عن اليهود المحافظين والإصلاحيين على أن يرأسها حاخام من اليهود الأرثوذكس . ولكن الأرثوذكس (في الحاخامية الكبرى) رفضوا هذه المقترنات تماماً . ووصف قادة الإصلاحيين والمحافظين قرار الحاخامت الأرثوذكس بأنه سيؤدي إلى انقسام خطير في صفوف اليهود ، ويهدد مستقبل حكومة رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو .

وفي المقابل ، أعرب اليهود الإصلاحيون والمحافظون عن شعورهم بالصدمة ، وقال الحاخام إيهود باندل ، رئيس الحركة المحافظة في إسرائيل ، إن رفض المتشددين للتسوية بمنزلة إعلان حرب ضد الشعب اليهودي . وأكد الحاخام يوري ريجيف رئيس الحركة الإصلاحية أن الحاخامية الكبرى قد أغلقت الباب في وجه التسوية .

ثم وقعت مشكلة جديدة ، إذ تم انتخاب امرأة ، من التيار الديني الإصلاحي ، عضواً في المجلس الديني لمدينة نتانيا . وهو مجلس مؤلف من تركيبة حزبية (لكل حزب ممثلون حسب نسبته في الانتخابات البلدية) وشعبية (مثلي الشعب) ودينية (مندوبيين يعينهم مجلس الرئاسة الروحية الرسمية) وجاء تعين "الحاخامة" جويس برнер (وهي بروفيسير في اللاهوت) عن حزب ميرتس اليساري الصهيوني .

هذا الانتخاب أثار جنون الأرثوذكس (فاليهودية الأرثوذكسية لا تقبل باشتراك النساء في صلاة الجماعة في المعبد ولا بحاخامات إناث) فرفضوه ، فتوجهت الحاخامة الجديدة إلى المحكمة العليا واستصدرت أمراً يجيز التعين ويؤكد أنه قانوني ويأمر وزير الأديان بالصادقة عليه . ولكيلاً يعتبر موقفه إهانة للمحكمة وقرارها ، وهو أمر مخالف للقانون ، اتفق نتنياهو ، مع قيادة شاس ، أن يقبل وزير

الاديان (إيليا سويسا من حزب شاس) ويتخذ صلاحياته لمدة ساعة ، يوقع خلالها بنفسه على كتاب التعين ، ثم يعيده الوزارة إليه . لكن هذا الحل لم يرض الأرثوذكس ولا حتى الحاخامين الأكبرين ، فراحوا يهاجمون نتنياهو وقرروا مقاطعة كل مجلس ديني يضم امرأة أو يضم حاخاماً إصلاحيًا أو محافظاً (يرى الأرثوذكس أن هذين «المذهبين» يجب ألا يمثلان أساساً في المجالس الدينية) .

فهرس

٥	مقدمة
٩	من هو اليهودي؟
١٥	الهويات اليهودية بوصفها تركيبا جيولوجيا تراكميا
١٩	تاريخ الهويات اليهودية حتى الوقت الحاضر
٣١	التعريف الديني للهويات اليهودية
٣٥	الخريطة العامة للهويات اليهودية في الوقت الحاضر
٣٩	الهوية اليهودية الجديدة في المجتمعات الغربية الحديثة
٥٣	يهودي غير يهودي ويهودي بشكل ما
٥٧	ادعاء اليهودية
٥٩	اعضاء الجماعات اليهودية وقضية الهوية القومية
٦٣	التعريف الصهيونية للهويات اليهودية
٦٧	الهويات اليهودية والتناقض بين الرؤية الصهيونية والممارسة الإسرائيلية
٧٩	استجابة اعضاء الجماعات اليهودية للتعريف الصهيونية للهويات اليهودية
٨٧	الاختلاف من الفكر الديني ، الإصلاحى ، المحافظ ، والفكر الأرثوذكسي
١٠٥	من هو اليهودي عام ١٩٩٨ ؟

رقم الاليداع : ٩٧/٨٣٣٥
I.S.B.N. 977 - 09 - 0387 - 6

مطبوع الشرفة

القاهرة : ٨: شارع سفيونه المصري - ت ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب. ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٥٩ - ٨١٧٢١٣ - ٨١٧٧٦٥ فاكس : (٠١) ٨١٧٧٦٥

من هو اليهودي؟!

يواجه التجمع الصهيوني في فلسطين المحتلة منذ تأسيسه عام ١٩٤٨ قضية دينية/ سياسية مركبة الأبعاد، متعددة المستويات، هي قضية الهوية اليهودية وتعريف اليهودي، التي يشار لها في الخطاب السياسي والإعلامي، الإسرائيلي والغربي، بعبارة «من هو اليهودي؟». ويحاول هذا الكتاب أن يلقى الضوء عليهما فيتناولها من منظور تاريخي واجتماعي وسياسي وديني.

يبدا الكتاب بعرض تاريخي لظهور الهويات اليهودية المختلفة في أنحاء العالم، النابعة من الواقع الحضاري للمجتمعات التي يعيش أعضاء الجماعات اليهودية بين ظهرانيها. ثم يقدم الكتاب خريطة للهويات اليهودية في الوقت الحاضر، وضمن ذلك الهوية اليهودية الجديدة في المجتمعات الغربية الحديثة والتعرّيف الديني الأرثوذكسي للهوية اليهودية.

ثم يعرض الكتاب بعد ذلك للأطروحات الصهيونية التي تتطلّق من ادعاء ليس له ما يسانده في الواقع وهو أن اليهود شعب واحد، وأن الصهيونية هي القومية اليهودية. ثم يبيّن الكتاب كيف أن الواقع الإثني والعرقي للمستوطنين الصهاينة في فلسطين المحتلة، وبهود العالم خارجها، يتحدى هذه الأطروحات ويبين طبيعتها الاختزالية وكذبها وزيفها.

وفي هذه الطبعة الثانية من الكتاب أضاف المؤلف فصلين جديدين، واحد «الاختلاف بين الفكر الديني الإصلاحى والمحافظ، والفكر الأرثوذكسي» بعنوان «من هو اليهودي عام ١٩٩٨».

دار الشروق

القاهرة، ٨ شارع سليمان العصري - رابعة العدوية - مدينة نصر
من بـ ٣٣ ، المانوراما - تليفون ٦٠٢٣٩٩ - فاكس ٦٠٣٧٥٧
بيروت، من بـ ٨٠٦٤، هاتف ٣٥٨٥٩ - فاكس ٨٠٧١٢٥
(٩٦٣)



To: www.al-mostafa.com